

من حصـــاد الفكر الإسلامي

دكتور
محمد بهي الدين سالم

السنة الحادية عشرة، العدد ١٢٣، ربيع الأول ١٤١٣هـ، ١٩٩٢م

الطبعة الأولى ١٤١٢ هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ

صدق الله العظيم





من حصاد الفكر الإسلامي

كتاب يعتبر بحق رحلة إبداعية شيقة حرص فيها المؤلف على أن يقدم لنا ذخيرة حية من الزاد الإسلامي لقراء العربية ليقتات منه كل من أراد المزيد من معين الفكر الإسلامي الصافي ، ولا غرو فقد طوف بنا صاحبه في أكثر من مجال متوخياً الحق والصدق ، بعيداً عن كل وهم باطل وخيال كاذب .

أولا : القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة .

ثانياً : آراء بعض المفكرين الملهمين حتى لا يكون في ذلك مجال للشك أو التخمين .

ومن هنا جاء الكتاب نابضاً بالخير ناطقاً بالحياة المثلى التي ينشدها كل مسلم يبتغي الهدى والرشاد ، ويسعى إلى بلوغ الفضل والاتجاه نحو الكمال .

وإذا كان الكاتب - كما قلنا - قد طوّف بنا في أكثر من مجال من مجالات المعرفة الإسلامية الخصبة ، فإنه بلا ريب قد وفاها حقها كاملاً ،

ولم يتركها إلا واضحة المعـالم ، صادقة الأدلة والشواهـد ، حيث نراه هنا يبين لنـا أن الإسلام عقيـدة وشريعة ، وأن الله – سبحـانـه وتعالى – قـد اختار نبيـه ورسوله محمـداً ﷺ ليقوم بتبليغـه وتفضيله وتوضيحـه للناس كافـة ، حتى يكون في ذلك الحجـة البالغـة على الناس أجمعين . . . ثم يمضي مستطـرداً في التـوضيح فيبين للقارىء حقـائق الإسـلام وأبـاطيل خصومه منبثقـة ومستلهمة مما كتبه الكاتب الكبير المرحـوم عباس محمود العقـاد فينقل إلينـا بعض آرائه وأفكـاره بما في ذلك من تسـاؤلات يتـولى الكاتب الرد عليهـا فيكشف بذلك القناع عن تلك الحقـائق ، ويجلو ما عسى أن يكون قـد اكتنف بعضها من غموض ، ثم يتطرق بعـد هذا إلى كتـاب الله العظيم ، ليرى القارىء مـدى الاعجـاز البالغ ، والأسلـوب الحكيم والنور المبين في آياته الكريمـة فيوفق حق اليقين أن القرآن الكريـم هو كتاب الله الذي لا يأتيه البـاطل من بين يديه ولا من خلفه ، وأن الله – جلت قدرته – قد بين فيه كل شيء ﴿ **ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين** ﴾ .

ثم ينقلنا الى المجتمع الإسـلامي كما نظمته سورة النسـاء . فيستوحي منهـا كثيراً من المعـالم القيمة مسترشـداً في ذلك بما سبق أن كتبـه فضيلـة المرحوم الشيخ محمـد محمد المدني في كتابه القيم الـذي أصدره من قبل في هذا الموضـوع ، هذا فضلاً عن حـديثه عن الإسلام والحيـاة ، وما إنتهى إليه من نتيجة حتمية وهي أن الإنسـان والمجتمع كلاهما في حاجة دائمة للـدين والتخلق بأخـلاق القرآن الكـريم وسنـة الـرسول – صلـوات الله وسلامه عليه – .

وأما عن المرأة في ظل الإسلام فقد أفرد لها المؤلـف جانباً تناول فيه كل ما يتعلق بـالمرأة من العناية بها والمكانـة الكريمة التي خصتهـا بها الدين

الإسـلامي ، والتي لم يسبق أن حظيت بها في أن تشريع سماوي آخـر ، ولا حتى في المجتمعات الإنسانية التي تعارف الناس عليها فيما بينهم .

فإذا جئنـا إلى الحج والعمرة نجـد أنهما قـد أخـذا نصيبهما كامـلاً من الكتابة عنهما من حيث الأحكـام الخاصة بهما ، وما يتعلق بكل منهما من خصائص إلى غير ذلك مما سيراه القارىء إن شاء الله .

ذلكم قبس يسير مما سجلـه الباحث في هذا الكتاب الحافل بـالفرائد الطريفـة والطرائف الفريدة ، وقـد جمع الكاتب شتاتها ونظمهـا في عقد متناسق ، وأسلوب شـائق تهفو له النفوس فتقرؤه علماً نافعـاً ، وفناً رفيعاً ممتعاً ، وليست هذه أول بذرة يغرسها المؤلف في هذا الروض المزهر ، ولا أول ثمرة يجنيها القارىء من ورائه ، فقـد سبق له أن غرس في هذا الحقل الإسلامي ، وقطفنا منه ثماراً شهية ريحها طيب وطعمها طيب .

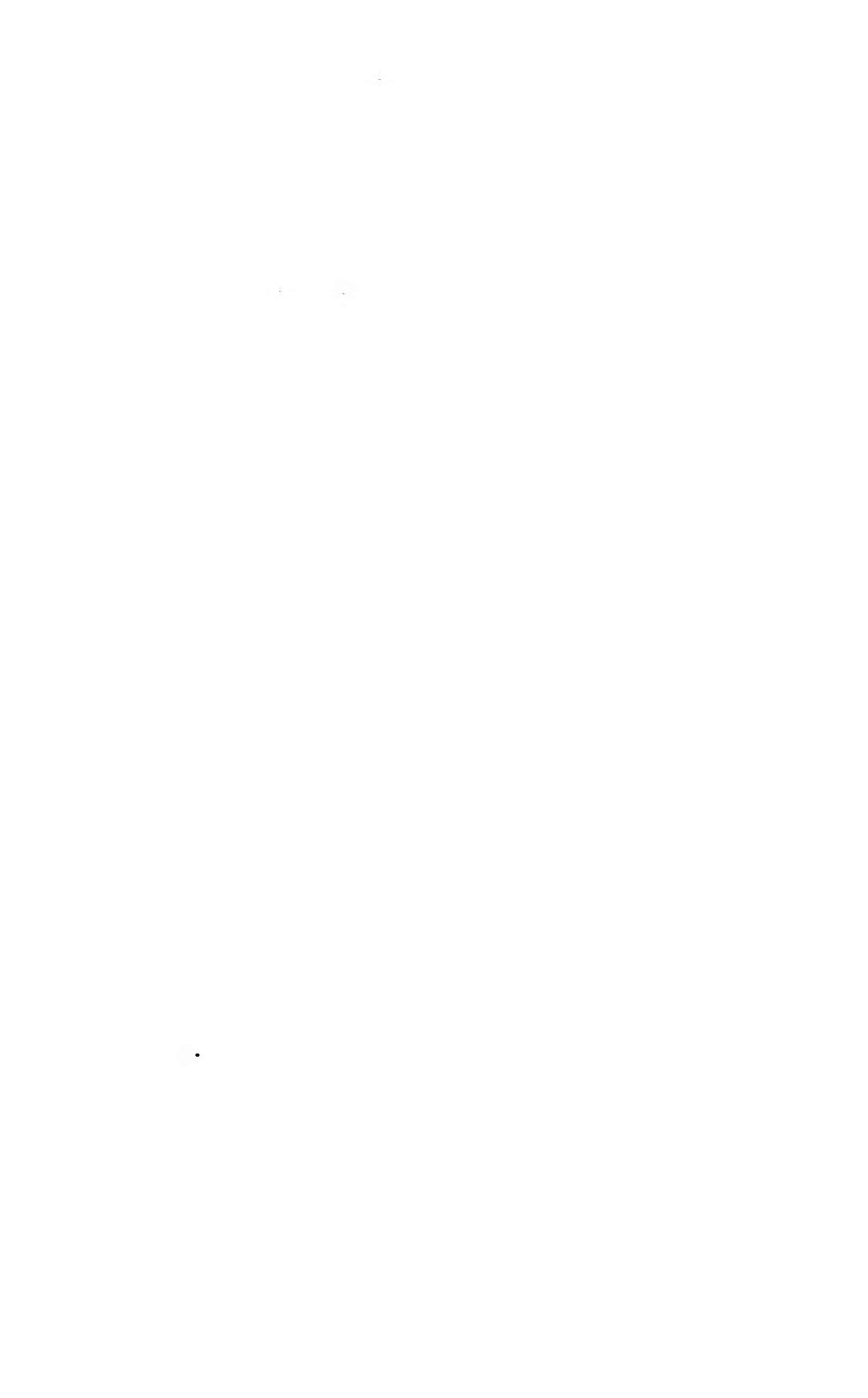
وبعد فـلأن هذا الكتـاب الذي بين أيـدينا كتـاب نافع مفيـد ، وهو ثمرات مبـاركة من حصاد الفكـر الإسلامي يقـدمها الدكتـور محمد بهي الدين سالم إلى قراء العـربية وإلى المكتبة الإسلامية بعد سيـاحة طويلة في كتب العلم والأدب ، وبعد جهد كبير بذله في الرجوع إلى أمهات المصادر العلمية والأدبية فاستفاد منها بحمد الله وأفاد .

نسأل الله أن ييسر سبيل هذا الكتاب إلى القلوب ، وأن يـزيد صاحبه هدى ورشاداً وتوفيقاً وسداداً .

هذا وفي الله العون ومنه التوفيق .

أ. د. محمد الطيب النجار

رئيس جامعة الأزهر سابقاً وعضو مجمع البحوث الإسلامية ، وعضو مجمع اللغة العربية والمشرف العام على مركز السيرة والسنة





فاتحة القول

أخي المسلم في كل مكان من أرض الله ، يسمع فيه صوت « **لا إله إلا الله محمد رسول الله** » .

أحيك بتحية الإسلام ، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

وأدعوك إلى مائدة من موائد الرحمن تحفل بوجبة دسمة ليست لملء البطون ، ولكن لملء العقول والقلوب .

نعيش من خلال عناصرها في رحاب القلم وما يسطرون حصاد صفوة مميزة من مفكري الإسلام علماء أجادوا أفنوا النصيب الأوفى من أعمارهم ، في جهاد النفس ونكران الذات . ليخروجوا على الناس بمصنفاتهم في فقه الإسلام « عبادات ومعاملات » يحملون مشعل العلم والمعرفة في إطار من نفحات القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة ، وما آتاهم الحق تبارك وتعالى من تجليات يهدونها للبشرية طريق هداية ورشاد ، وأسلوب حياة وعمل .

أما عناصر هذه المائدة فهي :

أولاً : مباحث في القرآن شريعة الحق شريعة الله .

ثانياً : مباحث في السيرة والسنة النبوية المطهرة .

ثالثاً : مباحث متنوعة .

أخي المسلم .. لعلنا نكون قد وفقنا فيما قدمناه من عناصر أثرت ، وستظل تثري المكتبة الإسلامية والفكر الإسلامي على مر العصور .

هذا وعلى الله قصد السبيل .

دكتور محمد بهي الدين سالم
وكيل وزارة الأوقاف لشؤون مركز السيرة والسنة
المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية



الإسلام هـو دين الله ، الذى أوصى بتعـاليمه فى أصـوله وشرائعـه إلى النبى المصطفى محمد ﷺ كلفه بتبليغه إلى الناس كافة ، ودعوتهم إليه ... وقد آمن كل من أخضع قلبـه للحق بأنه من عند الحق تبـارك وتعالى ... أوحاه إلى خاتم أنبيائه .

وقد اتصلت بالقـرآن الكريم – بعد أن التحق محمد بـالرفيق الأعلى – افهام العلماء والأئمـة فيما لم يكن من آياتـه نصا فى معنى واحـد ومن هذا الجانب اتسع ميدان الفكر الإنسانى ...

أما العقـائد الأصلية كالإيمان بـالله واليوم الآخر وأصـول الشريعة فإن نصوصها جاءت فى القرآن واضحة ، والإسلام دين يتسع للحرية الفكرية العاقلة ، مسايراً جميع أنواع الثقـافات الصحيحة والحضارات النافعة . . ومن القرآن عـرف أن الإسلام لـه شعبتان لا يتحقق معنـاه إلا إذا أخذت الشعبتان حظهما من التحقق والوجود ... هـاتان الشعبتان هما : العقيدة والشريعة ...

عزيزى القارىء :

من بين كبـار علماء أزهرنـا الشريف العالم الفـاضل المفضال المرحـوم الشيخ محمود شلتوت ، تولى مشيخة الأزهر عام ١٩٥٨م . وكان – رحمة الله عليـه – من صفوة الصفـوة فى علوم الـدين ، قـدم للعالم الإسـلامى إنتاجاً غزيراً ... لعل من أبرزه : فقه القرآن والسنة ، منهج القرآن فى بناء

المجتمع ، تنظيم العلاقات الدولية فى الإسلام ، من توجيهات الإسلام ، الإسلام والوجود الدولى للمسلمين . وكتاب (الإسلام عقيدة وشريعة) من بين هذه المجموعة القيمة من كتب الإمام الأكبر الشيخ محمود شلتوت .

قسم الكتاب إلى ثلاثة أقسام :

القسم الأول : العقيدة وتتضمن :

(ا) العقائد الأساسية فى الإسلام ، (ب) طريق ثبوت العقيدة .

القسم الثانى : الشريعة وتتضمن :

(ا) العبادات ، (ب) نظام الأسرة والمواريث ، (ج) الأموال والمبادلات ، (د) العقوبات ، (هـ) المسئولية المدنية والجنائية فى الشريعة ، (و) الأمة فى الإسلام . وختم القسم ببيان عن الأخلاق فى الإسلام .

القسم الثالث والأخير : مصادر الشريعة ويتضمن :

(ا) القرآن الكريم ، (ب) السنة النبوية الشريفة ، (ج) أسباب اختلاف الأئمة فى فقه القرآن والسنة ، وختم القسم ببيان فى الرأى والنظر .

ومعك عزيزى القارىء نتجول بين دفتى الكتاب لتعم الفائدة ويزداد النفع بإذن الله .

العقيدة :

هى الجانب النظرى الذى يطلب الإيمان به أولاً وقبل كل شىء إيماناً لا يرتقى إليه شك ، ومن طبيعة العقيدة تضافر النصوص الواضحة على تقريرها ، وإجماع المسلمين عليها ، وهى أول ما دعا إليه الرسول الأعظم – صلوات الله وسلام عليه – وطلب من الناس الإيمان به فى

المرحلة الأولى من مراحل الدعوة ، وهى دعوة كل رسول قبل الرسول الخاتم .

والعقيدة هى الأصل الذى تبنى عليه الشريعة والإسلام يحتم تعانقهما بحيث لا تنفرد إحداهما عن الأخرى . والعقائد الأساسية فى الإسلام هى :

أولاً : وجود الله ووحدانيته .

ثانياً : ان الله سبحانه يصطفى من عباده ما يشاء ، ويحمله رسالته عن طريق ملائكته ووحيه ، ثم يبعثه إليهم رسولاً يبلغهم ويدعوهم إلى الإيمان والعمل الصالح .

ثالثاً : الإيمان بالملائكة – سفراء الوحى بين الله ورسله وبالكتب ... رسالات الله إلى خلقه .

رابعاً : الإيمان بما تضمنته هذه الرسالات من يوم البعث والجزاء (الدار الآخرة) ومن أصول الشرائع والنظم التى ارتضاها الله لعباده ، مما يناسب استعدادهم ، وتقضى به مصالحهم على الوجه الذى يكونون به مظهراً حقاً لعدله ورحمته ، وجلاله ، وحكمته . وقد جعل الإسلام عنوان تحقق هذه العقائد عند الإنسان الشهادة بأن الله واحد وأن محمداً رسوله ، وهذا هو الحد الفاصل بين الإسلام والكفر ، والإسلام حينما يطلب من الناس أن يؤمنوا بتلك العقائد لا يحملهم عليها إكراهاً ، وكذلك لا يحملهم عن طريق الخوارق الحسية التى يدهش بها عقولهم ، وإنما حجته التى لفتت إليه الأنظار فيما يتعلق بعقيدة الإله وجوداً ووحدانية وكمالاً دائرة بين النظر الفعلى وبين ما يجد الإنسان فى نفسه من الشعور الباطنى والإحساس الداخلى .

على هذا النحو لفت القرآن أنظار الناس فيما يتعلق بعقيدة الإلوهية

، أما فيما يتعلق بالرسالات فقد كانت حجته المعجزة الدائمة التى تعمل عليها فى العقول عن طريق النظر مهما امتدت بها الحقب ، وهى القرآن الكريم .

. وكما أرشد القرآن الكريم إلى هذا الجانب أرشد فى جانب الإله إلى ما وصفه هو سبحانه وتعالى من أسماء وصفات تمثل ذاته ، وليس للمسلم أن يناجى ربه باسم أو صفة لم يضعها الله لنفسه .

أما العقيدة الثانية بعد الإيمان بالله تعالى فهى العقيدة فى الملائكة ، فقد جاء فى القرآن أنهم جند من جنود الله حجب حقيقتهم عن الادراك البشرى ، خاضعون لسلطات الإلوهية العام ، الذى لم يشذ عن الخضوع له شىء فى الطبيعة أو فيما وراءها ، وهم وسائل الصلة بين الله وخلقه ، أما الروح فلم يرد عنها فى القرآن سوى قوله تعالى : ﴿**فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين**﴾ . (الحجرات ٢٩) .

وقوله سبحانه : ﴿**فلولا اذا بلغت الحلقوم ، وأنتم حينئذ تنظرون**﴾ (الواقعة ٨٣) . وأما حقيقتها فقد ترك القرآن بيانها .

وكما طلب الإسلام الإيمان بالملائكة طرفا أعلى فى طريق وصول الهداية العليا للإنسان طلب الإيمان بالرسل طرفا متصلاً بالإنسان طبيعتهم من طبيعته وبشريتهم من بشريته ، وقد تعاقبت الرسالات على الإنسان أمة بعد أمة وجيلا بعد جيل ، وكلها ذات هدف واحد وهو توجيه الإنسان إلى طريق الكمال .

والإسلام لا يفرق بين الرسل ، وطلب الإيمان بما أنزل عليهم جميعا ، وكما طلب الإسلام الإيمان بجميع الرسل ، وطلب الإيمان بأن محمداً – عليه الصلاة والسلام – خاتم الأنبياء والمرسلين ، ووظيفة الرسل لا تعدو الارشاد والتعليم عن طريق الوحى لهم أسمى مكانة الاحترام والقيادة

الروحية التهذيبية ، وهم بعد ذلك لا يملكون نفعا ولا ضرا لأنفسهم فضلا عن غيرهم .

وقد أكد القرآن بشرية الرسل وإنهم برسالاتهم لم يخرجوا عن طبيعتهم البشرية ، أما الأولياء الذين يعرفهم الإسلام ، فقد بينهم القرآن بعبارة واضحة ليس فيها ما يدل على ان لهم امتيازا خاصا يلحق بهم نوعا من القداسة .

ومن أهم عناصر الإيمان فى الإسلام ، الإيمان بيوم الحساب وقد عبر عنه القرآن الكريم باليوم الآخر ، وأرشد إلى أنه خاتمة المطاف بالإنسان .

هذه هى العقائد الأساسية للإسلام، وهى تقرر أنها أساس كل دين إلهى، - وإذاً - فالأديان التى لا تبنى عليها - فى حكمه - أديان باطلة لا يقام لها وزن، فالإسلام ينكر - على الملحدين الذين لا يؤمنون بالإله الخالق - إلحادهم، وعلى المشركين الذين يعبدون مع الله غيره شركهم، وينكر الذين لا يؤمنون بالملائكة والكتب واليوم الآخر عدم إيمانهم ويدعوهم جميعاً إلى الايمان بتلك العقيدة عن طريق النظر والحجة.

طريق ثبوت العقيدة :

اتفق العلماء على أن الدليل العقلى الذى سلمت مقدماته وانتهت فى أحكامه إلى الحس أو الضرورة يفيد ذلك اليقين ويحقق الإيمان المطلوب.

أما الأدلة النقلية فقد ذهب كثير من العلماء إلى أنها لا تفيد اليقين ، ولا تحصل الإيمان المطلوب ولا تثبت بها وحدها عقيدة ، ولابد أن يعم العلم بها جميع الناس ، ولا يختص بطائفة دون أخرى ، لأنها أساس

الدين ، والعمليـات التى ترد بطـريق منطقى أو لابسها احتمال واختلف فيهـا العلماء ليست من العقـائد التى يكلفنا بها الـدين والتى تعتبر حـداً فاصلاً بين الذين يؤمنون والذين لا يؤمنون .

وتطبيقا لهذه المبـادىء يتبين ان الطريق الـوحيد لثبوت العقـائد هو القـرآن الكريم وذلك فيما كـان من آيـاته قطعى الـدلالة ، وأيضـا يثبت بـالحديث الصحيح ، وينهض حجـة عليهـا إذا كـان قطعيـا فى وروده ودلالتـه . أما الاجماع فقـد اختلفوا فى حقيقـة وحجية مـا يكون فيـه من أحكام لذا فحجيته فى ذاتها غير معلومة بدليل قطعى فلا يكفر منكره .

ومن مبـاحـث العقيـدة التى تشكل القسم الأول مـن الكتـاب إلى الشريعة القسم الثانى منه : فالشريعة اسم للنظم والأحكام التى شرعها الله ، أو شرع أصـولها وكلـف المسلمين إيـاهـا ليأخـذوا أنفسهم بها فى علاقتهـم بالله ، وعلاقتهـم بالنـاس وإنها على كثرتها ترجـع إلى ناحيتين رئيسيتين :

ناحية العمل الذى يتقرب منه المسلمون إلى ربهم ، ويستحضرون به عظمته ، ويكون عنوانا على صدقهـم فى الإيمان به ، ومراقبته ، والتوجه إليه ، وهذه الناحية هى المعروفة فى الإسلام باسم «العبادات» .

ونـاحية العمل الـذى يتخذه المسلمـون سبيلا لحفظ مصـالحهم ، ودفع مضارهم ، فيما بينهـم وبين أنفسهـم ، وفيما بينهم وبين الناس على الوجه الذى يمنع المظالم ، وبه يسود الأمن والاطمئنان وهذه الناحية هى المعروفة فى الإسلام باسم «المعاملات» .

العبادات :

هى الصلاة والصـوم والزكـاة والحج ونظرا الى أن المقصـود من هذه

العبادات الأربع – مضمونة إلى الاقرار بوحدانية الله سبحانه وتعالى ورسالة محمد – ﷺ – هو تطهير القلب ، وتزكية النفس ، وقوة مراقبة الله ، التى تبعث على امتثال أوامره ، والمحافظة على شرائعه ، فى جميع نواحيها كانت هى العمد التى يبنى عليها الاسلام ، وفى ذلك يقول النبى – صلوات الله وسلامه عليه – **«بنى الإسلام على خمس ، شهادة ان لا إله إلا الله ، وان محمدا رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلا»** .

الصلاة :

عبادة بدنية فرضها الله على المسلم فى اليوم والليلة خمس مرات فى أوقات محددة، يقف فيها مستقبلا بوجهه – أينما كان – جهة المسجد الحرام بمكة المكرمة ، وقد كانت الصلاة – لما لها من الأثر العظيم فى تهذيب النفوس وتقريبها إلى ملأ الطهر – أقدم عبادة عرفت مع الايمان ولم تخل منها شريعة من شرائع وقد حكيت عن الأنبياء والمرسلين .

والصلاة أيضا ليست – كما يظن كثير من المسلمين – مجرد عبادة شخصية ، يقوم بها المؤمن فيما بينه وبين ربه ، تقتصر فائدتها على تهذيب النفس وإنما هى – مع ذلك – جعلت عن طريق الاجتماع لها – فرضا كان الاجتماع أم سنه أم فضيلة – سبيلا لتعارف المؤمنين ، وتفاهمهم فيما يحتاجون إليه من خير فى دينهم ودنياهم .

والزكاة :

عبادة مالية، أراد بها الإسلام أن يمد الغنى يده إلى الفقير بما يسد حاجته ، وإلى المصالح العامة بما يحققها ، وهى واجبة على الغنى فيما يزيد عن حاجته وحاجة من ينفق عليهم ، من ماله النقدى وقيم أعيانه

التجارية ومواشيه وثمار زرعه ، بنسب معروفة عند المسلمين يقوم مجموعها بحاجة الفقير والمصالح ولا ترهق أربابها وزكاة النقود والتجارة تؤدى فى كل عام مرة وزكاة الزروع تؤدى فى كل زرعة .

أما الصوم :

فهو العبادة الدينية الثانية ، وهو الامتناع عن الأكل والشرب والملامسة الجنسية طول النهار - من الفجر إلى غروب الشمس - بقصد امتثال أمر الله ، وقد فرضه الله فرضا عام على جميع القادرين فى شهر رمضان من كل عام .

والحج :

عبادة معروفة ، تنتظم من الانسان قلبه وبدنه وماله ، وليس ذلك لغيرها من العبادات ، يقوم بها المستطيع من المسلمين فى زمن معلوم ، وأمكنة معلومة امتثالاً لأمر الله ، وابتغاء مرضاته ، وتبتدىء تلك العبادة بنية الحج خالصاً لله ، مع التجرد من الثياب المخيطة ، ومن صنوف الزينة والترف وتنتهى بالطواف حول بيت الله الحرام .

ومن أركان الإسلام الخمس إلى نظام الأسرة والمواريث «الباب الثانى من مباحث الشريعة» بدأ بالأسرة فقد أفرغ الإسلام على عقد الزواج صيغة «الميثاق الغليظ» وصور إمتزاج الطرفين فيه بقوله سبحانه وتعالى : -

﴿هن لباس لكم وأنتم لباس لهن﴾ (سورة البقرة ١٨٧) .

وركزه على عناصر : السكن والمودة والرحمة ، وجعله أساسا لتسلسل الذرية ، كما جعله الخلية الأولى التى تتكون منها الأسرة وتتفرع عنها الإنسانية «شعوبا وقبائل» تتعارف وتتعاون وتكون منها الأمة المثالية الفاضلة التى تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، وتحقق له معنى الخلافة

فى الأرض التى خلق لأجلها وفضل بها على كثير من الخلق ، ومن هنا عنى الإسلام بجملة من الوسائل التى من شأنها اذا روعيت وحوفظ عليها كانت قوة فى الحياة الزوجية وأهم هذه الوسائل :

التعرف :

والإسلام يوصى بإختيار من له دين وخلق ، ويحذر من الاعتماد على مجرد الجمال أو الحسب أو المال .

الاختيار :

هى خطوة الخطبة ، خطوة الاختيار عن طريق الحس ، مشاهدة واستماعا .

الرضا :

لم تكتف الشريعة فى وسائل تكوين الأسرة وبناء الحياة الزوجية على التعرف والاختيار السابقين ، وإنما أوجبت بعد ذلك تمام الرضا من الطرفين ، وجعلته شرطاً لصحة العقد .

المهر :

فرضت الشريعة للزوجة منحه تقدير تحفظ عليها حياءها يتقدم بها الزوج معبراً عن تقديره إياها وعن رغبته فى إتمام الزواج بها ، هذه المنحة تعرف باسم المهر . فإذا ما تمت هذه المقدمات فإن الإسلام يقرر بينهما الحقوق والواجبات والذى يرجع إليه فى تقرير الحقوق والواجبات إنما هو «العرف» الذى تقضى به فطرة المرأة وفطرة الرجل ، وشأن ما بينهما من المشاركة والاجتماع .

وقرر الاسم على الـرجل مسئولية الهيمنة والقوامـه، وجعله المكلف بحق المرأة فيما يصل بها الى الخير، ويـدفع بها عن الشر يقول الحق تبـارك وتعالى : ﴿وللرجـال عليهن درجة﴾. وقـد بنى الاسلام المجتمعـات فى إداراتها وتنظيم شئـونها - مع تعيين مصدر القـوامة فيها على أسـاس من الشـورى وتبـادل الـرأى، يشـاور الـرئيس المرؤس، والحاكم المحكـوم، ويكون العزم فى الفصل على ما يتم عن طريق المشورة.

وقـد طلب الإســلام من الـزوج أن يحسن إلى زوجـه، وطلب من الـزوجة أن تحسن إلى زوجهـا ، وإحسان العشرة من الـزوج ليس خاصـا بكفاية الـزوجة من الطعام والشراب وصنوف الزينة ، كما أنـه من الزوجة ليس خاصـا - كذلك بإجابتهـا الزوج إذا دعاهـا ، إنما هو معنى ينبعث من قلب أحدهما إلى قلب صاحبه..

. ولم يقف الإسلام فى حفظ الحياة الزوجية ، عند حد الأمر بالإحسان وإبـراز مقتضياتـه من الزوجين ، وآثـاره فى الأسرة ، بل قدر أن النفـوس البشرية عرضة للتقلب ، وأن لمظاهر الحياة ، أو إنحراف القلوب نزعات تحاول أن تغير من عـواطف الحب والمودة والـرحمة وتقطـع مـا يكـون من صلات.

من هنا حـذر القرآن مسـايرة النزعـة الطارئة ، وأرشـد إلى محاربتها حتى لا تتمكن مـن قلب المرأة فتحملهـا على النشــوز ، وقــد أســاء المتحضرون من أبناء المسلمين فهم التأديب ووصفوه بأنه علاج صحراوى جاف لا يتفق وطبيعة التحضر القاضى بتكريم الزوجة واعزازها.

إن الإسلام لم يكن لجيل خاص ولا لإقليم خاص ، وإنما هو إرشاد وتشريع لكل الأجيال وقد أبرز القـرآن الصنف المهذب من النساء اللاتى يترفعن بخلقهن وتـربيتهن وإيمانهن عن النــزول إلى درك المستحقــات

للهجر ، فضلاً عن درك المستحقات للضرب.

والواقع أن التأديب المادى أمر تدعو إليه الفطر ويقضى به نظام المجتمع ، وإذا كان مثار النشوز هو الزوج فقد أرشد القرآن الزوجة أن تعمل على كسب قلبه بوسائل الترضية المشروعة.

أما إذا اشتد الخلاف وتفاقم الأمر بين الزوجين فإن واجبهما ان يقف كل من الآخر على الحياد ، واللجوء إلى المجلس العائلى وهو الحل الوحيد ومن هنا كان الإصلاح بين الزوجين واجبا بوجه أخص على المسلمين ، وإذا ما نفذت الوسائل الاصلاحية كلها وعجز الزوج عن إصلاح زوجه أو عجزت الزوجة عن إصلاح زوجها ، وعجز الحكمان بعدهما عن اصلاحهما ، وتباعدت مسافة الخلف بين الزوجين كان الطلاق أفضل وهو أبغض الحلال عند الله .

والحق تبارك وتعالى يبين للناس موقف الإسلام من الأسرة فهى لبنة من لبنات الأمة التى تتكون من مجموعة أسر ، يرتبط بعضها ببعض ومن الطبيعى أن البناء المكون من لبنات يأخذ ما لهذه اللبنات من قوة أو ضعف ، فكلما كانت اللبنات قوية ذات تماسك كانت الأمة المكونة منها كذلك ، قوية ذات تماسك ومناعة وكلما كانت اللبنات ذات ضعف وانحلال ، كانت الأمة كذلك ذات ضعف وانحلال ومن هنا كانت العناية بتقوية الأسرة من أهم ما يجب على المصلحين رعايته وأخذ الطريق إليه ولا يكون ذلك إلا بتوخى المبادىء القوية التى يشاد عليها صرح الأسرة وتضمن بقاءها ونموها ، قوية مثمرة ، مؤثرة فى كيان الأمة .

يقول سبحانه وتعالى : -

﴿يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا﴾ (الحجرات ١٣) .

﴿ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾ (الروم ٢١) .

﴿وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها إن يريدا إصلاحاً يوفق الله بينهما إن الله كان عليما خبيراً﴾ (النساء ٣٥) .

ويقول تعالى : -

﴿والتى تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن فى المضاجع واضربوهن فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا﴾ (النساء ٣٤) .

ويدور المبحث الثانى حول نظام الاسرة والمواريث يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿وإن خفتم ألا تقسطوا فى اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فإن خفتم ألا تعدلوا﴾ (سورة النساء ٣) .

تعدد الزوجات :

احدى المسائل التى كان لصوت الغرب المتعصب ، ودعايته المسمومة أثر فى توجيه الأفكار إلى نقدها ، حتى حاول فريق من أبناء المسلمين فى فترات متعاقبة - ولا يزالون يحاولون - وضع تشريع لها يقيد من إطلاقها بما يقيده الله به .

وقد وقعت هذه المسألة بين نصى تشريعى ، وحالات اجتماعية وقد تجاذبت كلا منهما الافهام والتقديرات .

ويدور بين الحين والحين كلام كثير ، بل حملات مدبرة ، حول تعدد الزوجات وأضراره الاجتماعية ، ولم يقف الامر عند الكلام ، بل قامت حركات تطالب الحكومات بمنع التعدد أو تقيده .

ولعلنا عندئذ نعرف ونعترف - كما عرف واعترف كتاب الافرنج

أنفسهم - أن منع تعدد الـزوجات له دخل كبير فى ارتفاع نسبـة اللقطاء والمؤودين ، وقـد أدركـوا ذلك وخطب بـه خطبـاؤهـم ، ونـادى بـه مصلحوهـم فى أوائل هـذا القرن ، وذلك فى المؤتمر الذى عقدتـه الحكومة الفرنسية سنة ١٩٠١م للبحث عن خير الطرق فى مقاومة انتشار الفسق .

وهكذا فالإسلام لم يكن فى شرع تعدد الزوجات ، ولا فى شرع أصل الـزواج مبتكـراً لشىء لم يكن معروفـا من قبل ، وهـذا شأنـه فى كثير من وجوه المعـاملات والارتباطات البشريـة التى تقضى بها طبيعة الاجتماع ، وإنما كـان مقررا مـا تقتضيـه الطبيعـة من ذلك معدلا فيهـا بما يـرى من جهات التهذيب التى تكفل للطبيعة الوقوف فى الحد الوسط ، وتقيها شر الانحراف والميل وتحفظ للاجتماع خير مقتضيات هذه الطبيعة .

ومن تعدد الزوجات الى تنظيم النسل :-

ولما كان تحديـد النسل بمعنـاه المعروف : وهو الـوقوف بنسـل الأمة عند عـدد معين لا تقصده أمـة تريـد البقاء خصـوصاً فى هـذا العصر - عصر التنافس بين الأمم فى الكثـرة والقوة - كان لابد أن يراد بـه ما يلتقى مع معنى التنظيم الـذى لا يأبى الكثرة ولا يقتضى الـوقوف بـالنسل عند حد معين .

وكبدايـة للموضوع نقول أن الشريعـة الإسلامية جعلت الولـد حقاً مشتركاً بين الوالدين وبين الأمة يعمل على تنميتـه وتهذيبه ثم يقدمه للأمة فيفيده ويفيد الأمة وقاعدة الشركـة العادلة ألا يطغى على الوالد أن يحضه بالوسائل المشروعة وأن أحد الشريكين بحقه على حق صاحبه .

والشريعة الاسلاميـة حثت على مبادىء القوة والعـزة وكثرة الايدى العاملة ، وتقـويم الامة ورقيها ، وهذه غايـات لا يمكن الحصول عليها

إلا بكثـرة النسل ولكن ليس معنى هذا أن نطلق الحريـة للإنجـاب حتى ولـو أدت إلى الأضرار. وتلتقى الشريعـة والطـب فى هـذه النـاحيـة فهما يلتقيـان فى وجـوب دفع الضرر الـذى يلحق الزوجـة أو الأمـة من جـراء إطلاق الحرية فى تحصيل النسل وكثرته.

فكما أن الطب لا يقـر حلاً فيـه إضرار بالمرأة أو بـالنسل وتـوافقـه الشريعة فى هذا ، فالشريعة أيضا لا يروقها كثرة هزيلة ، ولا تقيم لإرتفاع نسبتها فى التعداد وزناً ، ولا يتخذ منها النبى الكريم مبعثاً للمباهاة بها ، بل بالعكس تمقت الشريعة هذه الكثرة وتحقرها .

المرأة فى ظل الإسلام :-

وكانت المرأة فى نظـر الإسلام مـوضوع فصل من فصـول الكتاب ، فقد عـرض القرآن الكريم لكثير من شئون المرأة فى أكثـر من عشر سور، منها ســورتان عـرفت احداهما بسـورة النساء الكبرى ، وعـرفت الأخرى بسورة النسـاء الصغرى وهما : سورتـا النساء والطلاق . وقـد دلت هذه العنايـة على المكانة التى ينبغـى أن توضع فيها المرأة فى نظـر الإسلام وأنها مكانـة لم تحظ المرأة بمثلها فى شرع سماوى سـابق ، ولا فى اجتماع إنسانى تواضع عليه الناس فيما بينهم .

والحق أن الإسـلام منح المرأة كل خير ، وصـانها عن كل شر ، ولم يأب عليها سـوى ما دفعتها إليـه هذه المدنيـة الكاذبة من حـرية جعلت المرأة الغربية إذا ما خلت إلى ضميرها الانسـانى ، تبكى دماً على الكرامة المفقودة والعرض المبتذل والسعادة الضائعة . وستعلم المرأة متى ثابت إلى رشـدها ، إنـه لا منقذ لها ولا حـافظ لكرامتهـا وحقوقهـا ، سوى هـذه التعاليم الإلهيـة التى يحاول خصوم الدين والسائرون فى طـريقهم من أبناء

المسلمين ، أن يصوروه بصورة الاغلال التى تطوق الأعناق وتحول بينها وبين مالها من حق فى الحياة .

وقد جعل القرآن المرأة شريكة للرجل ، وعندما خصص الأم بنوع من العناية جاء منظما لما تقتضيه فطرة الخلق والتكوين ، وما تقتضيه عاطفة الحنو والشفقة التى أودعها الله فى قلب المرأة لولدها وما احتملت هى من أجله . والمرأة فى القرآن ذات مسئولية مستقلة عن مسئولية الرجل مسئولة عن نفسها وعن عبادتها وعن بيتها وعن جماعتها . وليس من الإسلام أن تلقى المرأة حظها من تلك المسئولية على الرجل وحده بحجة انه أقدر منها عليه أو أنها ذات طابع لا يسمح لها بأن تقوم بهذا الواجب ، فاللرجل دائرته وللمرأة دائرتها والحياة لا تستقيم إلا بتكاتف النوعين فيما ينهض بأمتهما .

وقرر الإسلام احترام رأى المرأة فيما تبدو وجاهته ، شأنه فى رأى الرجل تماما سواء بسواء . وليس من شك فى أن تحميلها المسئوليات ، يجعل لها أو عليها الحق فى أن تتعلم كل ما يمكنها من القيام بهذه المسئولية على الوجه الذى حددت به ، وطلبت منها عليه وهو تحرى الخير والصلاح ، والبعد عن الشر والفساد .

وقد منحت الحق أيضا من إبداء الرأى فى مباشرة عقد زواجها . وكل ذلك أثر لانسانيتها المساوية لإنسانية الرجل وقد ظهر ذلك فى كثير من نواحى التشريع الإسلامى .

وكانت قواعد الميراث فى الإسلام تمثل فصلا من فصول الكتاب وهى :-

أولا : علاقتى القرابة والزوجية .

ثانيا : إلغاء صفات الذكورة والأنوثة ، والصغر والكبر فى أصل

الاستحقاق ، فكان للصغير والكبير والذكر والانثى حق فى الميراث .

ثالثا : الآباء والأبناء لا يسقطون فى أصل الاستحقاق بحال ما .

رابعا : إرث للإخوة والأخوات مع وجود الأبوين وإن كانوا ينزلون بنصيب الأم من الثلث إلى السدس .

خامسا : أنه متى اجتمع فى الوارثين ذكور وإناث أخذ الذكر ضعف الأنثى يقول الحق تبارك وتعالى : **﴿يوصيكم الله فى أولادكم للذكر مثل حظ الانثيين فإن كن نساء فوق اثنتين فلهن ثلثا ما ترك وإن كانت واحدة فلها النصف ولأبويه لكل واحد منهما السدس مما ترك إن كان له ولد فإن لم يكن له ولد وورثه أبواه فلأمه الثلث فإن كان له اخوة فلأمه السدس من بعد وصية يوصى بها أو دين آباؤكم وأبناؤكم لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعا فريضة من الله إن الله كان عليما حكيما﴾** (النساء - ١١) .

ومن بين ما تناولته الشريعة الإسلامية الأموال والمبادلات نظمتها ووجهتها فى باب يسمى «الأحوال الشخصية» قررت الميراث وهو مبدأ إسلامى يعمل على توزيع الثروات والربط بين الأقارب بعضهم ببعض ، وبين الأجيال سابقها ولاحقها ، وقد بنت الشريعة هذا الميراث على قواعد غاية فى العدل والحكمة ، وتولى الحق تبارك وتعالى فى كتابه الكريم تنظيم أنصبته وتوزيعها بنفسه ، والمتبع لتعاليم الإسلام فى قرآنه وسنة رسوله يخرج بنتيجة واضحة هى أنه دين حياة فلا عجيب أن يكون للمال فى النظام الإسلامى قيمة كبيرة ومكان مرموق .

وقد أمر الإسلام بتحصيل المال عن طريق التجارة والصناعة والزراعة .

والإسلام حينما طلب تحصيل الأموال بهذه الطرق نظر إلى أن حاجة المجتمع المادية تتوقف عليها كلها وأن يعمل على تنسيقها بحيث لا تترك

الأموال تتكدس فى تركيز عنصر واحد منها دون سواه. وقد عنى القرآن الكريم عناية فائقة بالحث على البذل للفقراء والمساكين ، وفى سبيل الله ، كما أن الإسلام حارب الشح والإسراف والترف عند أصحاب المال تحقيقا لانتفاع الجميع بالأموال ، وتطهيراً للنفوس من بواعث الأثرة .

وكما اتجه الإسلام بهذه الارشادات إلى الأفراد تحذيرا لهم من آفتى الشح والتبذير جعل من حق ولى الأمر أن يأخذ منهم بطريق القهر والقوة ما وضعه الله فى أموالهم من حقوق الأفراد والجماعة .

وقد عرضت شريعة الإسلام لجانب آخر من الجوانب التى تتعلق بشئون الأموال ، وهو المبادلات المالية وعمدتها الارتباط بالالتزامات ، والوفاء بالحقوق ، والواقع أن للإنسان فى الحياة جانبين : جانبا ماديا أساسه المعاملات ، وجانبا روحياً أساسه العبادات وفى الجانب المادى متسع للشهوات ، لذلك حذر الإسلام من الفسق فى المعاملة ، ووضح آثاره الضارة فى المجتمع ، ومن هنا يجدر بالموظف والكاتب والموجه والمعلم أن يأخذوا لأنفسهم من تخصيص الكيل والميزان - وقرنها بعبادة الله ، واعتبار انتقاصها إفساداً فى الأرض ، كما أن الإسلام يحرم استغلال حاجة المحتاج فذلك هو أساس الربا الذى حرمه الله ورسوله .

ونمضى مع مباحث كتابنا الشيق إلى أن نصل إلى جانب من جوانبه الهامه وهى العقوبات ، ومسلك الشريعة وهدفها فى تقريرها سلكت الشريعة فى تقرير العقوبة الدنيوية مسلكين بارزين :

المسلك الأول.. العقوبة النصية :-

نص القرآن والسنة على عقوبات محددة لجرائم معينة هى من عموم الجرائم بمنزلة الأمهات نظراً إلى دلالتها على تأصل الشر فى نفس الجاني،

وإلى شدة ضررها فى المجتمع وإلى حرمة ماوقعت عليه فى الفطر البشرية، وهى الجرائم الآتية :

١- عقوبة الاعتداء على الدين بالردة يكون بإنكار ما علم من الدين بالضرورة أو ارتكاب ما يدل على الاستخفاف والتكذيب والعقاب الدنيوى لهذه الجناية هو القتل .

٢- عقوبة الاعتداء على الأعراض بالزنا أو القذف .

٣- عقوبة الاعتداء على الأموال بالسرقة أو على الأمن العام بالمحاربة والإفساد فى الأرض ، وقد جاء فى السرقة قوله تعالى :

﴿والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالاً من الله والله عزيز حكيم﴾ . (المائدة : ٣٨) .

٤- عقوبة الاعتداء على العقل بشرب المسكر لم يرد لهذه الجناية عقوبة دنيوية فى القرآن الكريم ، وإنما جاء قوله تعالى :

﴿يأيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون﴾ (سورة المائدة : ٩٠) .

٥- عقوبة الاعتداء على النفس بالقتل أو بما دونه من القطع أو الجرح .

أما المسلك الثانى فهو العقوبة التعويضية :

سلكت الشريعة طريقا بالنسبة للجرائم التى لم تنص عليها ، وهى طريقة التفويض لولى الأمر فى أن يعاقب على الجنايات بعقوبة يراها رادعة ، وهذا هو المعروف عند الفقهاء بإسم (التعزير) ويكون فى الجرائم التى لم تحدد لها الشريعة عقوبة معينة ، وفى الجرائم التى حددت لها عقوبات ، ولكنها لم تتوافر فيها شروط تنفيذ هذه العقوبة .

لهذا لم يقف الإسلام عند حـد العقوبة الأخرويـة بل وضع عقوبات دنيـوية لتكـون سيفـا مسلطا على رؤوس مـن تضعف عقيدتهم فى هـذا الترهيب الأخروى .

وأما عن سبل الوقاية من الإجرام :-

أولا : العمل على تهيئة الإنسان ليكـون عضو خير وإنتاج فى سعادة الجماعة الإنسانية ، فكلف الناس جميعـا بالعمل ، وأرشدهم إلى التجارة والصناعة والزراعة وحذر من البطالة وإهمال النفس فى هذه الحياة .

أما السبيل الثانى: فهو أن ضمن للإنسان فوق حياته المادية بالعمل حياة أخرى نفسية سعيدة ، ترجع إلى كفالة حقوقه الشخصية والاجتماعية بتقرير العدل فى أدق صوره وتقرير التواصى بالخير والتناهى عن الشر .

ومن العقوبات انتقل إلى الجرائم ، وأهمها جريمة القتل فى الإسلام والشرائع الأخرى .

ترى معظم الشرائع أن يكون القتل عقـوبة للقتل ، وتميل على وجه عام فى شأن تنفيذها ، اما إلى جانب الإفراط ، وإلى جانب التفريط .

وقـد جـاء الإسلام وهـو أحـد الأديـان السماوية ليهـذب الشعـور ويسمو بالـوجدان ويرتقى بالإنسان إلى عالم الكمال على أنـه الدين العام للناس جميعـا فاتخذ الحد الوسط بين طرفى الافـراط والتفريط فى كل شىء فى عقائده وأخلاقه وشرائعه فردية كانت أم اجتماعية وقال تعالى : -

﴿وكـذلك جعلناكم أمـة وسطـاً ، لتكونـوا شهداء على النـاس﴾ (البقرة : ١٤٣) .

وكـان من مقتضيات هـذا الوضـع الذى جـاء عليه الإسـلام ، أن

توخى فى عقوبـة القتل أصولاً بعدت بتلك العقوبـة فى جميع نواحيها عن طرفى الإفراط والتفريط اللذين صحباها فى عامة أدوارها ، بل فى كل نظر يخالف مـا يقتضيه الحد الـوسط الذى لا إسراف فيـه ولا تقصير ومع أن الإسلام أقر القصاص عقوبـة لجريمة القتل ، لم ير أنه واجب متعين لابد منه بل خير بينه وبين العفو .

وقد قرر الإسلام التكافؤ بين الناس جميعا فى الدماء ، ولم يجعل لدم أحد فضلاً على دم آخـر ، وقرر الإسلام ان مسئوليـة الجماعة لا يتحملها غير الجانى .

وجعل الإسلام حق المطالبة بالـدم ، وحق العفو لولى المجنى عليه ولم يجعل لولى الأمر حقاً فى العفو ، إذا ما تمسك ولى الدم بالقصاص .

حكم القرآن والسنة فى القتل والقصاص : الاعتداء على النفس قد يكـون بـالقتل وقـد يكون بما دونـه من قطع أو جـرح ، وعلى كل إمـا أن تكمل فيه معانى الجناية فيجب القصاص أو لا تكمل فلا يجب .

وقد ورد فى القرآن الكريم والسنة النبـوية الشريفة كثير من نصوص النهى عن القتل ، ونص القرآن على أن هناك عقـوبة أخروية للقتل وهى جهنم يقول سبحـانه وتعالى : ﴿**ومن يقتل مؤمنـاً متعمدا فجزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه . وأعد له عذاباً عظيماً**﴾ .

(النساء : ٩٣)

وقتل الإنسان نفسه ليس إلا نوعا من قتل النفس التى حرمها الله ، كما نهى القرآن عن قتل النفس المعاهدة لأنها فى العصمة عند الله كالنفس المؤمنة سواء بسواء .

ويفـرد الكتـاب بابـا عن المسئوليـة المدنيـة والجنائيـة فى الشريعـة الإسـلامية ، حـدد فيه معنى المسئولية المدنيـة ، أنواع التعـويض ، ثم

الأصل الشرعى للمسئولية المدنيـة وما قرره القرآن الكريم والسنـة النبوية بشأنها ، ثم ينتقل إلى رأى الفقهاء بـالنسبة لمبدأ «تعـويض الضرر» أخذاً من النصوص الشرعيـة المتقدمـة ، واعمالا للقواعـد المتفق عليها ، فإنهم اختلفوا فى مدى تطبيق هـذا المبدأ اختلافا واسع الشقـة فمنهم من توسع فيه إلى أقصى حد ممكن ، ومنهم من ضيق فيه إلى أقصى حد ممكن .

ثم قسم أسباب المسئولية المدنية إلى :-

(أ) المسئولية الناشئة عن مخالفة العقد .

(ب) المسئولية الناشئة عن الاستيلاء القهرى .

(ج) المسئولية الناشئة عن مباشرة الاتلاف .

(د) المسئولية الناشئة عن التسبب فى الاتلاف .

(هـ) المسئولية الناشئة عن التقصير فيما يجب .

ومن أسبـاب المسئولية المدنيـة انتقل إلى المسئوليـة عن فعل الغير ، وتأثير عوارض الأهلية فى المسئولية وقسمها إلى :-

(أ) تأثير عارض الصغر والجنون .

(ب) تأثير عارض الإكراه .

ثم انتقل إلى أوجـه تحمل المسئـوليـة عن الفـاعل ، والأصل فى المسئولية أن تتعلق بمن باشر الاتلاف أو تسبب فيه ، ولكن توجد أحوال يتحمل فيها تبعة المسئولية غير المباشر وغير المتسبب وهى :-

(أ) أن يكون الفاعل ممن نصب لمصلحة الناس .

(ب) أن يكون الفاعل باشر الفعل بأمر غيره .

(جـ) الإكراه .

ومن المسئولية المدنية إلى المسئولية الجنائية والجناية على النفس تكون بالقتل أو إتـلاف عضو منها ، وعلى المال تكون بـالسرقة ، وعلى العرض

تكون بالقذف ، وعلى النسب تكون بالزنا ، وعلى العقل تكون بشرب المسكر ، وعلى الدين تكون بالردة ، وعلى النظام العام تكون بقطع الطريق والإفساد فى الأرض .

هذه هى الجرائم التى نصت عليها الشريعة وحددت لها متى تكاملت فى معناها عقابا خاصا ورأت أنها إذا لم تتكامل فى معناها تكون عقوبتها من باب التعزير كغيرها من سائر الجرائم التى لم تنص عليها الشريعة والتعزير عقوبة .

ويتبين لنا ان الشريعة الإسلامية لا تشترط فى «المسئولية الجنائية» النص على الجريمة أو العقاب وهذا وضع يتفق تمام الاتفاق مع صلاحيتها للتطبيق فى كل العصور والأحوال وليس من شك فى أن الناس يتطورون فى تقدم الحياة وابتكار وسائل الخير وصوره ، فليس من الحكمة مع هذا التشريع الذى جاء للخلود أو ينص على جرائم وعقوبات بأعيانها ثم يقول : «لا جريمة إلا بنص» «ولا عقوبة إلا بنص» .

والجرائم التى نصت عليها الشريعة منها ما هو اعتداء على حق الله ، ومنها ما هو اعتداء على حق العبد ، فالأول جرائم الزنا والقذف والسكر والتعدى على الدين وقطع الطريق .

والثانى جريمة التعدى على النفس وقد أمرت الشريعة فى جميعها بالاحتياط فى توقيع عقوباتها فقد ثبت أن رسول الله - ﷺ - قال : **«ادرءوا الحدود عن المسلمين ما استطعتم فإن كان له مخرج فخلوا سبيله فإن الإمام ان يخطىء فى العفو خير من أن يخطىء فى العقوبة»** وقال ﷺ : **«ادرءوا الحدود بالشبهات ادفعوا القتل عن المسلمين ما استطعتم»** .

هذه صورة مصغرة لأصول عامة فى الشريعة الإسلامية عن المسئوليتين المدنية الجنائية مع التأكيد بأن الشريعة الإسلامية لم تقيد

الفقهاء بعد أصولها الكلية بخطة معينة فى البحث وإنما فوضت لهم الرأى والاعتهاد فيه على ما يقدرون من مصالح وحقوق ووجبات فى العصور المختلفة والبلدان المتباينة ، وهكذا نشأ الفقه الإسلامى ، وهكذا اتسع ، وهكذا يساير الإنتاج العقلى الصحيح ومقتضيات المدنية مهما تقدمت وارتقت بها الحياة .

ويحدثنا الكتاب عن أسس الدولة فى الإسلام ، فقد نظر الإسلام إلى المسلمين بإعتبارهم أمة يتكون منهم ما عرف فى اصطلاح الناس بعد بإسم «الدولة» فاعتبر فيهم مزايا ومقومات هى سر العظمة والمجد والقوة التى كانت طابع الدولة الإسلامية ، وأهم هذه المقومات أربعة .

١- الأخوة الدينية : وهى أصدق تعبير عن الوحدة المشتركة قررها القرآن الكريم :

﴿إنما المؤمنون إخوة﴾ وفرض الرسول - ﷺ - «المسلم أخو المسلم» وقد غلبت إخوة الإيمان كل صلة سواها حتى صلة النسب .

٢- التكافل الاجتماعى : وهو لازم من لوازم الإخوة ، بل هو أبرز لوازمها وهو شعور الجميع بمسئولية بعضهم عن بعض ، وأن كل واحد منهم حامل لتبعات أخيه ، ومحمول على أخيه يسأل عن نفسه ويسأل عن غيره .

٣- الشورى : وهى أساس الحكم الصالح وهى السبيل إلى تبين الحق ومعرفة الآراء الناضجة أمر بها القرآن ، وجعلها عنصرا من العناصر التى تقوم عليها الدول الإسلامية .

٤- العدل : وهو أهم الدعائم التى يسعى إليها البشر حتى يطمئن الناس على حقوقهم ، ويستقر العدل فيما بينهم ، فليس أبعث للشقاء والفتن ، وأنقى للهدوء والاطمئنان بين الافراد والجماعات من

سلب الحقوق ، واغتيال الأقوياء حقوق الضعفاء .

يقول الحق تبارك وتعالى :-

﴿ولا يجرمنكم شنئان قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى﴾ (المائدة: ٨)

﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان﴾ (النحل : ٩٠).

﴿و إذا قلتم فاعدلوا﴾ (الأنعام : ١٥٢).

ومن أسس الدولة فى الإسلام كان الحديث عن العلاقات الدولية ، فقد كانت الغرائز الحيوانية والطباع الوحشية قبيل الدعوة الإسلامية هى صاحبة السلطان والسيطرة .

ووسط جو قاتم ذيل فيه الروح الإنسانى بزغت شمس الإسلام وانبعثت نورها على الإنسان من أفق الحياة العليا فأيقظ روحه ، وأرشده إلى الخير والهدى . . والاتجاه لرب واحد هو الخالق الأعظم يقول سبحانه وتعالى :

﴿يأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام﴾ (سورة النساء الآية الأولى) .

ومن مبادىء الإسلام السلم وهو العلاقة الأصلية بين أبنائه لا يخرج عن هذا الوضع الطبيعى إلا إذا امتدت إليه يد العدوان ووضعت أمامه العراقيل .

وهنا فقط يؤذن لأهله أن يردوا العدوان اقراراً للسلم ، وإقامة للقسط ، والإسلام لا يبيح حرب التنكيل أو التخريب ولا يبيح الدخول فيها إلا بعد إعلان العدو فى مدة تفى لوصول خبرها إليه ، ولا يبيح إساءة معاملة الأسرى والتنكيل بهم والإسلام يجعل للمسلمين الحق فى أن

ينشئوا ماشاءوا من المعاهدات بينهم وبين غيرهم إبقاء على السلم أو رجوعا إليه .

وينتهى الكتاب بالقسم الثالث والأخير والذى تناول مصادر الشريعة الإسلامية ، فإذا كان مصدر العقيدة فى الإسلام هو القرآن الكريم المصدر الوحيد الصريح الحاسم فى معناه ، الذى لا يحتمل سواه ، فإن مصدر الشريعة أوسع نطاقا فهى تؤخذ .

أولا : من القرآن الكريم نصه ومحتمله .

ثانيا : من السنة المطهرة ، وهى أقوال الرسول وأفعاله وتقريراته التشريعية بشرط صحة نقلها عنه . ﷺ.

ثالثا : من الرأى عن طريق النظر فى محتمل القرآن والسنة وفى إلحاق ما لم ينص على حكمه بما نص فى حكمه وفى تطبيق القواعد الكلية المأخوذة من جزئيات التشريع القرآنى على الحوادث المعروضة ومن هنا يتبين أن مصادر التشريع فى الإسلام ثلاثة : القرآن والسنة والرأى .

وبعد :

فلعلك استمتعت معى - عزيزى القارىء - بهذه الجولة فى رحاب مبحث إسلامى يعتبر من ذخائر المكتبة الإسلامية .



مما لاشك فيه أن كتاب حقائق الإسلام وأباطيل خصومه أحد المؤلفات التى تزخر بها المكتبة الإسلامية ... فهو لقِمِة مفكرى العروبة والإسلام فى القرن العشرين الأستاذ/ عباس محمود العقاد ، بين دفتيه حقائق إسلامية هامة ... وآراء لكاتب عملاق تدحض بلا ريب أباطيل الخصوم ... خصوم الإسلام والمسلمين على مر الأيام والعصور .

ولعلك أخى القارىء تتعجب كيف أستطيع أن أرسم معالم إحدى مؤلفات الأستاذ العقاد فى تلك العجالة القصيرة ... وكل لمحة من فكره لابد أن يقف القارىء أمامها يفحصها كى يقترب من المعنى الذى يقصده .

كنت أمام هذا وذاك ... لكنى حاولت جهد طاقتى أن أعرض لك ذلك الكتاب بتوجيه سؤالين متشابهين أو سؤال واحد فى صورتين مختلفتين :

* هل للدين حقيقة قائمة ؟

* هل للدين ضرورة لازمة؟ .

ثم يستطرد إلى أن أكبر الشبهات التى تعترض عقول المتشككين والمنكرين شبهتان هما : شبهة الشر فى العالم وخلاصتها أننا لا نستطيع التوفيق بين وجود الشر فى العالم ، وبين الإيمان بإله قدير كامل فى جميع الصفات .

وشبهة الخرافة وخلاصتها أننا لا نستطيع التوفيق بين العقائد

والمحسوسات والمعقولات التى تنكشف عنها معارف البشر ، كلما تقدموا فى معارج الرقى والادراك .

ونمضى مع المؤلف فى التعريف بشبهة الشر ، وشبهة الخرافة ذاكراً أنها من أقدم الشبهات التى واجهت عقل الانسان منذ أن عرف كيف يفرق بين الخير والشر ، وتمثيله الخير بأنه إله النور ، والشر بإله الظلام ، وإيمانه بهذين الإلهين رغم تعارض ذلك مع عقول المؤمنين بالتوحيد .

وحينما تقدم الإنسان قليلاً إقترح كحل لشبهة الشر أنها وهم لا نصيب له من الحقيقة ، وأنه عرض زائل يتبعه الخير الدائم .

ومن الواضح أن هذا الحل لم يضع نهاية للمشكلة عند هذا الحد برز حل التكافل بين أجزاء الوجود .

وخلاصة حل التكافل بين أجزاء الوجود أن المعتقدين به يرون أن الشر لا يناقض الخير فى جوهره ، ولكنه جزء متمم له ، أو شرط لازم لتحقيقه ، وهو يعتبر أوفى ، وأقرب إلى الاقناع من جميع الحلول .

وينتهى المؤلف إلى أن وجود الشر فى العالم لا يناقض صفة الكمال الإلهى ، ولا صفة القدرة الإلهية ، بل هو أقرب إلى التصور من تلك الفروض التى يتخيلها المنكرون والمترددون .

وليس الشر مشكلة كونية ، ولا عقلية ، ولكنه مشكلة الهوى الانسانى الذى يرفض الألم ويتمنى أن يكون شعوره بالسرور غالباً على طبائع الأمور .

وهذا الشعور الإنسانى يتطلب الدين ... وهل ثمة مانع يمنعه من قبل العقل أو من قبل المعرفة التى يكتسبها من تقدمه فى العلم والحضارة .

وهنا يستطرد الأستاذ فى الكلام عن مشكلة التدين فعند المترددين ،

والمعطلين أن الأديان قد اختطلت قـديما بكثير من الخرافات ، وأن العقل يتعسر عليه أحياناً أن يوفق بين عقائد الدين ، وحقائق المعرفة العلمية .

وأيضا يسهب المؤلف فى الكـلام عن شبهة الخرافـة سائلاً المترددين والمعطلين إذا كـان التـدين على هذه الحالـة التى وجـد بها غير حسن فى تقديـره ... فكيف يكون الحسن؟ ... وكيف يتصـورونه ممكنـاً على نحو أقرب إلى العقل ، وأيسر فى الإمكان؟ .

ثم ينتهى كاتبنـا إلى الحديث عن شمول العقيـدة الإسلاميـة والمزايا التى امتازت بها عقـائد الإسلام ، وأحكامـه ، وما يوحى بـه الإسلام إلى المسلم عقيـدة فى الذات الإلهيـة وعقيدة فى الهدايـا النبويـة ، وعقيدة فى الإنسـان لا تعلوهـا عقيـدة فى الديـانـات ، ولا فى الحكمـة النظريـة أو الحكمة العلمية .

كذلك أن أحكام الإسـلام لا تعوق المسلم عن غاية تفتحهـا أمامه أشواط العلم والحضارة .

وأخيراً ففى الإسلام زاد للأمم الإنسانيـة فى طريق المستقبل الطويل يواتيها بما فيه غنى لها حيث نضبت الازواد من وطاب العقائد الروحية أو تكاد .

وتقف بنا المقدمـة عند هذا الحد لنستقبل الفصل الأول من الكتب الـذى قسم إلى عـدة مـوضوعـات فى العقيـدة الإلهيـة ... ثم النبـوة ... فالإنسان ... فالشيطان ... وأخيراً للعبادات .

****

ولنقف سويـاً عند كل مـوضوع على حدة ... ففى العقيـدة الإلهية يقول المؤلف «العقيدة الإلهية رأس العقائد الدينية بجملتها وتفصيلها» .

ولقد كـان النظر فى صفات الله مجال التنـافس بين أكبر العقول من

أصحاب الفلسفة الفكرية ، وأصحاب الحكمة الدينية ... إلى أن جاء الإسلام من جوف الصحراء العربية بأسمى عقيدة فى الإله الواحد الأحد صححت فكرة الفلسفة النظرية ، كما صححت فكرة العقائد الدينية فكان تصحيحه لكل من هاتين الفكرتين - فى جانب النقص منهما - أعظم المعجزات التى أثبتت له فى حكم العقل المنصف والبديهة الصادقة أنه وحى من عند الله - ولن أخوض فيما خاضه المؤلف من أقوال أرسطو وأفلوطين فى الأدلة ... غير أنى أنقل بعض الفقرات التى جاءت رداً على آراء هؤلاء الفلاسفة يقول :

ومن صفات الله فى الإسلام ما يعتبر رداً على فكرة الله فى الفسلفة الأرسطية كما يعتبر رداً على أصحاب التأويل فى الأديان الكتابية ، وغير الكتابية .

فالله عند أرسطو يعقل ذاته ولا يعقل ما دونها ويتنزه عن الإرادة لأن الإرادة طلب فى رأيه .

والله كما لا يطلب شيئا غير ذاته ، ويجل عن علم الكليات والجزئيات لأنه يحسبها من علم العقول البشرية ، ولا يعنى بالخلق رحمة ولا قوة ... لأن الخلق أحرى أن يطلب الكمال بالسعى إليه ... لكن الله فى الإسلام عالم الغيب والشهادة ﴿لا يعزب عنه مثقال ذرة﴾ ﴿وهو بكل خلق عليم﴾ .

﴿وما كنا عن الخلق غافلين﴾ ﴿وسع ربنا كل شىء علما﴾ .

﴿الا له الخلق والأمر﴾ ﴿عليم بذات الصدور﴾ .

ولا يمكن أن نغفل المقارنات المنطقية التى أوردها المؤلف بين الإسلام والديانات الأخرى والتى انتهت بنا إلى أن الإسلام جاء بالدعوة إلى إله منزه عن لوثة الشرك ، منزه عن جهالة العصبية ، وسلالة النسب

منزه عن التشبيه الذى تسرب من بقايا الوثنية إلى الأديان الكتابية .

فالله الذى يؤمن به المسلمون إله واحد لم يكن له شركاء . **﴿سبحانه عما يشركون﴾** ... وما هو برب قبيلة ولا سلالة يؤثرها على سواها بغير مأثرة ، ولكنه هو (رب العالمين) خلق الناس جميعاً ليتعارفوا ويتفاضلوا بالتقوى ... فلا فضل بينهم لعربى على أعجمى ، ولا لقرشى على حبشى إلا بالتقوى . **﴿ياأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾** .

****

وهكذا كانت العقيدة الإلهية فى الإسلام مصححة متممة لكل عقيدة سبقتها فى مذاهب الديانات أو مذاهب الفلسفة ومباحث الربوبية .

ومن العقيدة الإلهية ينقلنا المؤلف إلى مبحث آخر هو النبوة .

(نمت نبوة الإسلام نمأها الأوفى حين خلصت من دعوى الخوارق والمغيبات ، وهى آية النبوة الكبرى فى عرف الأقدمين .

ولم تكن براءة النبوة من هذه الشوائب عرضا مسوقا فى أطواء العقيدة بغير قصد ولا بينة ، بل كان وصف النبوة على هذه الصفة المطهرة فريضة مكتوبة على المسلم يعلمها من نصوص كتابه ، ويؤمن بها إيمانه برسالة نبيه ، فما النبوة بقول ساحر ، ولا يفلح الساحرون ، وما النبى بكاهن ولا مجنون .

بهذه الفكرة الرشيدة عن النبوة يفرق الإسلام بين طريقتين شاسعتين فى تاريخ الأديان ، طريق موغلة فى القدم تنحدر إلى مهد النبوات الوثنية ... حيث تشتبك العبادة بالسحر والكهانة ... ثم تتقدم فى

خطوات وئيدة يلتقى فيها الخبل واليقظة وتختلط فيها الخرافة بالإلهام الصادق والموعظة الحسنة .

وطريق تليها موغلة فى المستقبل يفتتحها صاحب النبوة الأخيرة فيعلن أنه يفند السحر والكهانة ويزرى بقداسة الجنون ، أو جنون القداسة ، ويروض بصيرة الإنسان على قبول الهدايا ، وإن لم تروضها له روعة الخوارق ، ودهشة الغيب المجهول ، لأنه يروض البصيرة الإنسانية على أن تنظر وتبصر ، ولا يستوى الأعمى والبصير .

ومن تأمل هذا الفارق بين الطريقتين الشاسعتين فى تاريخ الأديان ، لا جرم يطيل التأمل فلا يرى عجباً أن تكون هذه النبوة خاتم النبوات .

وبين السطور يؤكد لنا المؤلف أن النبوة الإسلامية جاءت مصححة متممة لكل ما تقدمها من فكرة عن النبوة كما كانت عقيدة الإسلام الإلهية مصححة متممة لكل ما تقدمها من عقائد بنى الإنسان فى الإله .

وينتهى موضوع النبوة بتساءل وإجابة .

* كيف تسنى لبنى الإسلام أن ينفرد بهذه الدعوة وحيدا فى تاريخ الأديان؟

الإرادة الإلهية هى الجواب الذى لا معدى عنه لمن يسأل ذلك السؤال : ومن آمن بالله فلا معدى له عن إرادة الله فى تفسير هذه الظاهرة التى لا نظير لها فى أديان الكتابيين وغير الكتابيين ، نعم لا معدى له عن إرادة الله ولا وصف الرسول بما شاء من نفاذ البصيرة وسمو الضمير .

وينتقل المؤلف إلى موضوع الإنسان ، وتعريفاته فله – أى الإنسان– تعريفات كثيرة تحيطه سواء من جانب مزاياه العقلية أو علاقاته الاجتماعية ، أو بالنظر إلى ترتيبه بين أنواع الاحياء على حسب مذهب التطور .

أما تعريف الإنسان بما وصف بـه القرآن الكريم ، وأحاديث النبى - ﷺ - فقد إجتمع جملة واحدة فى تعريفين جامعين :

أولا : الإنسان مخلـوق مكلف . ذلك جماع مـا يوصف بـه الإنسان تمييزا من العجماوات وتمييـزا من الأرواح العلوية على السـواء ولهذا كان فى أحسن تقـويم ... ولهذا يرتد إلى أسفـل سافلين . وقوام التقـويم الحسن ... الإيمان وعمل الصـالحات ... وسبيل الارتـداد إلى أسفل السـافلين مطـاوعـة الهوى ، والغرور والشرف وطغيـان القـوة والغنى ، ومنع الخير والهلع من البلاء والعجلة من الضعف والاغراء .

ثانيا: مخلوق على صورة الخالق ، مخلوق تهبط به أمانة التكليف إلى أسفل سافلين ، وترفع به إلى أعلى عليّين .

«ذلك هو الإنسـان فى عقيدة النبى الصادق الأمين ... نبى يـدعو إلى رب العالمين» ... بهذه العبارة ينهى المؤلف حديثه عن الإنسان ، ليبدأ حديثا آخر عن الشيطان يقول :

«إن معـرفة الانسـان للشيطـان كـانت فـاتحة خير، لأنه لم يعـرف الشيطان إلا بعد أن عـرف الخير، والشر، وعرف الفرق بين الشر والضرر، فعـرف أن الشر لايجوز، وكان كل مـايعرفـه منه لايسر، ولا يـوافق مآربـه وشهواته ، وعرف أن مخافة المآرب والشهوات لاتكون شراً على الدوام ، بل هي خير في كثير من الاحيان ، ومن ثم عرف كيف يكبح مـآربه وشهواته وهـو راضٍ مطمئن لأنـه يعلم أنـه عـامل للخير مستقيم على نهج الصلاح» .

ويستطـرد المؤلف في تعريف الخير والشر في العقيـدة الهندية ثم في العقيدة الثنوية الفارسية ، وأخيراً عند مصر الفرعونية ويمضي إلى أن يقول : «انتقلت فكـرة الشيطـان مـرحلـة واسعـة بعـد ظهـور المسيحيـة فتم

الانفصال بين الصفات الالهية والصفات الشيطانية».

وانتقلت فكرة الشيطان أبعد مراحلها بعد ظهور الاسلام ، فهي قوة الشر لامراء ، لكنهـا قوة لا سلطان لها على ضمير الانسـان مالم يستسلم لها بهواه ، أو يضعف منه عن مقاومة الاغراء.

يقول سبحانه وتعالى :

﴿إن كيد الشيطان كان ضعيفاً﴾ .

﴿وماكـان لي عليكم من سلطان إلا أن دعـوتكم فاستجبتـم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم﴾ .

بهذه العقيدة الوجـدانية الفكرية أقـام الاسلام عرش الضمير وثل عرش الشيطان ، فما كان سحر الشيطـان إلا ضرباً من الخيال أو الخبال ، وماكان له بقوة من قوى السحر، أو قوى العلم أن يهزم ضمير الانسان .

وينتهي الفصل الأول من الكتـاب ببحث شيق في العبـادات . . . فيه أن عبادة المسلم في جميع فرائضها تتكفل بالتنبيه الدائم الى حقيقتين :

الأولى : وجوده الروحي .

الثانية : الوجـود الخالد البـاقي الى جانـب وجود الانسـان الزائل المحدود في حياته الفردية على أن عبادات الاسلام قد امتازت بين عبادات الأديـان بمزيـة لا نظير لها في أرفعها ، وأرقـاها بـالنظر الى حقيقتهـا ، أو بالنظر الى جماهير المتدينين بها ، وتلك مزيته البينة التي يرعى بها استقلال الفرد في مسائل الضمير خير رعاية تتحقق لها في نظام وحياة .

فالعبـادات الاسلاميـة بأجمعها تكليف لضمير الانسـان وحده ولا يتوقف على توسيط هيكل أو تقريب كهانة .

يصلي حيث أدركـه مـوعـد الصـلاة «وأينما تكـونـوا فثم وجـه الله»

ويصـوم ويفطر في داره أو في بطن مـوطن عمله. . . ويحج فيـذهب إلى بيت لا سلطان فيه لأصحاب سدانة، ولا حق عنده لأحد في قربانه غير حق المساكين والمعوزين.

ولقد تعمد المؤلف أن يتبع الكلام عـن العقائد الاسلامية ببحث في المعامـلات ذلك لأن من العلماء المشتغلين بالمقارنـة بين الأديان من يسلم لعقـائد الـدين سموهـا، ونـزاهتهـا ولكنه مـع هذا يعيب الـدين نفسـه بشرائعه، وأحكامه ومعـاملاته ويصدق هذا القول على الأديـان الكتابية الثلاثة بغير استثناء للمسيحية التي يخطر لبعضهم أنها تعمدت أن تقصر الدين على العقائد والوصايا دون القـوانين والمعاملات والشبهة المتوافرة في العصر الحاضر إنما تـرد على المعـامـلات الاسـلاميـة من قبل النـاقـدين والمبشرين لأنها تمس ضرورات المعيشـة المتجـددة في كـل يـوم، وتـرصـد للمسلم في طـريقـه حيث سـار، وأينما اضطـرت بـه صروف الـرزق، والكسب ومرافق العمل والتدبير.

وليس في المصـارف والشركات شيء نـافع بـريء من الضرر والغبن يحرمـه الاسلام، وليس في اصـول العلم والتهـذيب شيء يناقض حـدود الجزاء في شريعة الاسلام.

ويلخص المؤلف الشبهـات في المعـامـلات الاقتصـاديـة الحديثـة والقضاء والجزاء بالنسبة للشرائع الاسلامية فيقول:

«تتلخص شبهة المعاملات الاقتصادية في مسألة واحدة هي مسألة الربا الذي يقول الناقدون انه قوام المصارف والشركات.

وتتلخص شبهة القضاء والجزاء في حدود السرقـة، والزنا، والخمر، والمقارنـة بين عقوباتها في الاسـلام، وعقوباتها في الشرائع الموضـوعة التي تسمى بالشرائع العصريـة، على أن الاسلام نفسه قد ظهـر في ابان الحالة

التي أصابت الغرب بين القرن الخامس عشر والقرن السادس عشر ، وتشبه الحالة التي أصابت المسلمين على أيدي المستغلين والمستعمرين ... وقد كان ماحرمه الاسلام من الربا وهو البلاء الذي شقيت به شعوب الغرب ، وشقيت به الشعوب الشرقية والاسلام . . . فقد كان الربا الذي وجده في الجاهلية فنهى عنه ، وحرمه ، حقيقا بالتحريم في كل شرعة وكل مكان .

ومن أطلع على وصفه كما كان يوم حكم الاسلام بتحريمه لم يستطع أن يقول فيه قولين ، ولا أن يجعل للشرائع موقفاً منه غير موقف التحريم الشديد بغير هوادة تبيح للمحتال أن يتسلل إليه بذرائعه ودواعيه .

وكان آخر مانزل من القرآن الكريم آيات في تحريم الربا نزلت قبل وفاة النبي- عليه الصلاة والسلام- بأقل من ثلاثة أشهر وهي من قوله تعالى في سورة البقرة : ﴿**الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس ، ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا وأحل الله البيع وحرم الربا فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف وأمره إلى الله ، ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ، يمحق الله الربا ، ويربي الصدقات والله لا يحب كل كفار أثيم**﴾

وهكذا فلا خلاف بين المسلمين على موضوع الربا الذي وردت فيه آيات كثيرة ، فهو ربا الجاهلية المعروف بربا النسيئة ، وأحاديث النبي- عليه الصلاة والسلام- في ذلك ، وأقوال المفسرين لا موضع فيها لخلاف .

وفي الصحيحين أن النبي- عليه الصلاة والسلام- قال : «إنما الربا في النسيئة» وسئل الامام أحمد عن الربا الذي لاشك فيه فقال : «هو أن يكون له دين فيقول له اتقضي أم تربى؛ . . . فإن لم يقضه زاده في المال ، وزاده هذا في الأجل» .

وبالمقارنة بين الأديان الكتابية بعد تلخيص الحكم الاسلامي في

مسألة الربا . . . نعلم ان المنافقين لا حجة لهم في اختصاص الاسلام بالنقد لما يزعمونه من تعويقه أعمال الحضارة بتحريمه هذه المعاملات لأنه لم ينفرد بتحريم الربا بين هذه الأديان حتى ماكان من قبيل البيوع التي تدس الربا وراء ستار من البيع والشراء .

وبغير حاجة إلى المقارنة بين الأديان الكتابية نعلم أن هؤلاء الناقدين لا حجة لهم أصلا على الاسلام فيما حرمه من ربا النسيئة أو ربا الفضل بأنواعه ، كما حرم الاسلام من هذه المعاملات كل تصرف فيه ظلم ، واضطرار ، وأكل للحقوق بالباطل ، وابتزاز للأموال في غير عمل ، ولا طائل .

وازدهار الحضارة مرهون بإلغاء كل تصرف من هذا القبيل ، غير مرهون على زعمهم حمايته ، والاغضاء عنه ، وعن ذرائعه وفى وسع المصارف والشركات أن تتجنبه وتمضى فى عملها حيث كانت فى البلاد الإسلامية ، فليس فى الإسلام نص ولا تأويل يحرم التصرف النافع الذى لا اضطرار فيه ، ولا اغتصاب للحقوق .

ولم يدع المؤلف موضوع المعاملات دون أن يتعرض إلى بعض مذاهب الفلاسفة والعلماء فى الربا بعد أن تعرض إلى مذاهب الأديان فيه يقول :

« ... فمن أقدم البحوث الفلسفية عن الربا بحث المعلم الأول أرسطو – فى كتابه عن السياسية – ومذهبه فيه أنه ربح مصطنع لا يدخل فى باب التجارة المشروعة وعنده أن المعاملة على أنواع ثلاثة :

١ – معاملة طبيعية وهى استبدال حاجة من حاجات المعيشة بحاجة أخرى كاستبدال الثوب بالطعام .

٢ – معاملة صناعية وهى استبدال النقد بحاجة من حاجات

المعيشة وهى التجارة التى لا حرج فيها .

٣ – معاملة مصطنعة ملفقة وهى اتخاذ النقد نفسه سلعة تباع ... فإنما حق النقد أن يكون وسيلة للمبايعة ، ومعياراً تعرف به الاسعار للسلع المختلفة ... وأما اتخاذه سلعة تباع وتشترى فهو خروج به عن غرضه وابتذال للتجارة فى غير مصلحتها» .

ويكاد الفيلسوف توما الاكوينى يتفق مع أرسطو فى رأيه بالنسبة للربا .

وكما تتبع المؤلف معنى الربا فى الجاهلية ، وموقف الإسلام منه واستطراده لآراء الفلاسفة ، تتبع أيضا حدود الجزاء فى الإسلام ... فلا حجة لمن يختص الإسلام بالنقد فى مسائل الحدود ، لأنه لم يفرض على جريمة من الجرائم عقاباً أقسى مما فرضته الأديان الكتابية قبله ، وما فرضته الشرائع الموضوعة فى أوانه .

ولا حجة لمن ينقد العقوبات لأنه يقارن بينها ، وبين عقوبات العصر الحديث ... فإن الحدود فى الإسلام بينة لا تناقض مصلحة الجماعة فى زمن من الأزمان .

ولقد كانت الشريعة الإسلامية ضرورة لا محيد عنها فى إبان الدعوة الإسلامية فلم يكن من الميسور ، ولا من المعقول أن تلبث الأمة الإسلامية حقبة من الزمن على شريعة الجاهلية ، أو تمضى فى حياتها العامة هملا بغير شريعة يدين بها الحاكم ، والمحكوم ، ونزلت شريعتها فى حينها على مثال لا تفضله شريعة عاصرتها فى جملتها ، ولا فى تفصيلها وتعاقبت بعدها العصور ، وما فى عارض من عوارضها حالة لم تقدر لها الشريعة كفايتها من التصرف والتوفيق .

ولعل المؤلف لم يتعرض بالتفصيل للبحوث الفقهية ، لكنه مع ذلك ذكر :

أولا : أن الحدود مقيدة بشروط ، وأركان لابد من توافرها جميعا بالبينة القاطعة والا سقط الحد أو انتقل إلى عقوبات التعزير ، إذا كان ثبوته لم يبلغ من اليقين مبلغ الثبوت الواجب لإقامة الحدود .

ثانيا: إن القصاص مشروط فيه العمد وإرادة الأذى بعينه ، فإن لم يثبت العمد فالجزاء الدية أو التعزير ، وقد يجتمعان أو يكتفى بالدية دون التعزير أو بالتعزير دون الدية .

وختم المؤلف هذا الموضوع الهام من موضوعات الكتاب بقوله : روح التشريع الإسلامى كما ظهرت فى نصوص الأحكام ، وأركان الثبوت روح سمحة جانحة إلى العذر ، وتمهيد الطريق للتوبة والصلاح .

* * * *

مما لا شك فيه أن من أهم ما يشغل بال كل مسلم ماله من حقوق وما عليه من واجبات حيال ربه ودينه ... وكان أن جعل المؤلف الفصل الثالث يختص بالمباحث الداخلة ضمن الحقوق الإسلامية ، واعتبر الحرية الإسلامية أولى هذه الحقوق بالمبادأة بها ... فقد صدر المؤلف موضوع الحقوق بقوله :

«إن أصدق ما قيل فى الأديان العالمية أنها ثورات ، ولا تقاس السعة فى هذه الثورات بإمتداد المكان ، ولا بكثرة العدد لأنها أوسع ما تكون إذا نشبت فى داخل النفس الإنسانية ، وكانت القوة الثائرة والقوة المتغلبة فيها مملكة واحدة : هى مملكة الضمير» .

غير أنه لم تعلن فى ثورات العالم الدينية حقوق عامة للإنسان قبل ثورة الإسلام فى القرن السادس للميلاد لأن الإنسان نفسه لم يكن عاما فيوليه الدين حقوقاً عامة ، وإنما ولد هذا الإنسان - العام - يوم آمن الناس بإله يتساوى لديه كل إنسان ، ويوم نيطت حقوقه بواجباته بغير تفرقة بين قبيل وقبيل .

وقبل أن يبين لنا المؤلف معنى الـديمقراطية أو الحرية الإسـلامية – أهم الركائز التى تتبنى عليها الحقوق – نراه وهو يرجع بنا إلى ما كان يطلق عليه اليونان والـرومان قديما إسم الحركات أو الحكومـات الديمقراطية ، ولكنه خطأ زعمهم بأن حكوماتهم تلك حكومات ديمقراطية ... لم يكن لها مبدأ تقوم عليه غير أنها خطط عملية لا من الفتنة ، واستجلاب الولاء للحاكمين .

وينتهى بنا المؤلف إلى أن المقصود بـالديمقراطية الإنسـانية غير هذا الذى قصده اليونان والرومان .

فالـديمقراطيـة الإنسانيـة مما يتصـور بغير عناصره الثـلاث التى لا انفصال بينها : وهى المساواة ... والمسئولية الفردية ... وقيام الحكم على الشورى ، وعلى دستور معلوم من الحدود والتبعات .

وهـذه هى العنـاصر الثـلاثة التى نـادى بها الإسـلام لأول مـرة فى تاريخ الإنسان ... يقول سبحانه وتعالى :

﴿يا أيها النـاس إنا خلقنـاكم من ذكر وأنثـى ، وجعلناكم شعـوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾ .

﴿كل امرىء بما كسب رهين﴾ ﴿وأمرهم شورى بينهم﴾ .

ويقول نبى الإسلام – صلوات الله وسلامه عليه :–

«يا أيها الناس إن ربكم واحد ، وأن أباكم واحد ، كلكم لآدم وآدم من تراب ، إن أكرمكم عنـد الله أتقاكم ، ليس لعربى على عجمي ، ولا لعجمى على عربى ، ولا لأحمر على أبيض فضل إلا بالتقوى» .

ونتابع مع المؤلف موضوع الحرية الإسلامية ، وكأنه لا يريد أن يترك شيئا لذكاء القـارىء ، بل يعمل دائماً على أن يضرب له الأمثال ، ويجيب على ما يدور داخل نفسه من تساؤلات نراه يقول :–

«وطالما قيل عن الديمقراطية الإسلامية إنما هى الديمقراطية العربية نقلها الإسلام من بيئة الصحراء التى نشأ فيها» .

ثم يدلل على أن هـذا القول مـردود على أصحابـه ، ويقيم حججه على أنه مشتقـة بين الحرية الانسانية - حـرية الحقوق المرعية - والطـلاقة التى يتمتع بها الحيـوان ، والإنسـان على السـواء بمعـزل عن العـوارض والرقباء وهى طلاقة الحكومات الجاهلية قبل الإسلام .

ويضرب المؤلف عدة أمثلة لحكومات بعض ملوك الجاهلية كحجر ابن الحارث ، وعمرو بن هند ، والنعمان بن المنذر وغيرهم .

وهى فى جملتها حكومات لم يكن لها سمة إلا الاستبداد بالأمر كأشد ما عرف الاستبداد فى دولة مـن دول الطغيان ذوات الصولة والصولجان ، فقد كـانت القدرة على الظلـم قرينـة بمعنى العزة والجاه فى عـرف السيد والمسود من أمراء الجزيرة من أقصاها فى الجنوب إلى أقصاها فى الشمال .

ويخلص المؤلف إلى أن الديمقراطية الإسلاميـة لم تكن نباتا عربيا نما فى الجاهلية ، وورثه الإسلام منها ... لأن الديمقراطية لم تكن لها وجود فى الجاهلية ، ولم تكن الـديمقراطية الإسلامية كـذلك نباتا منقولا مـن تربة أجنبية لأن الديمقـراطية الإسلامية ديمقـراطية حقوق تلازم الإنسـان وما نبت قبلهـا من الـديمقـراطيـات فهو على أحسنـه خطط عمليـة تمليهـا الضرورة على حسب الحاجـة إليهـا ، ولعل قـول المؤلـف : لم تنبت الديمقراطية الإسلامية فى تربـة الصحراء ، ولا فى تربة الحضارة ، ولكنها كـانت معجـزة إلهيـة مثلها فى الظهـور بين الجاهليـة كمثل الإيمان بـالله الواحـد الأحد الـذى لا يحابى قوماً لأنهم قـومه دون سـائر الأقوام ، ولا يلعن قوما لأنهم ورثوا اللعنة من الآبـاء والأجداد - قد أجاب على تساؤل يدور بخلد القارىء وهو :-

ما مصدر الديمقراطية الإسلامية إذن ؟ .

ونمضى مع المؤلف إلى أن تـوقفنـا فقـرة فيهـا معنى الاحتراس ، والأخذ بيد القارىء حيث معالم الطريق الصحيح .

«ولسنا نحب أن يفهم القارىء من كـلامنا أن المعجزة الإلهية تقلب أوضاع الأمور ، وتأتى فى أوانها بغير سبب مقدور وإنما نريد أن الأسباب لا تنكشف كلهـا لعلم الإنسان ، وأن علم الله سبحـانه هو الـذى يحيط بالخوارق التى لاتدخل فى الحسبان» .

وهكذا فلا جرم أن الإيمان بـرب العالمين إيمان بحق العدل والمساواة ، وإيمان بـالديمقـراطيـة التى تقوم على هـذا الحق فى الأرض وفى السماء ﴿إن الله لا يظلم مثقال ذرة ، وإن تك حسنـة يضاعفهـا ويؤت من لـدنه أجراً عظيماً﴾ .

وإذا كان هذا عهد الله سبحانه على نفسه أمام خلقه ، فالثورة التى جاء بها الإسـلام فى عالم الحقوق أرفع وأوسع بـلا ريب من أن تحسب من تلك الثـورات التـى تبتـدىء وتنتهى فى نطـاق الحركـات الاجتماعيـة أو السياسية .

إنها ثـورة كونيـة تـرتفع بـالحقوق والقيـم فى نظر الإنسـان إلى أعلى فأعلى ... وإلى أكمل فأكمل ، فـلا تبقى لـه من عـلاقـة ببنى نـوعـه أو بـالكون الـذى يحتويـه إلا ارتفعت بمقـدار ما ارتفع عنـده من حق ومن قيمة .

ومن مبحث الحرية الإسلاميـة ينتقل المؤلف إلى مبحث فى الأمة فلا مصدر للسلطـة العامة فى الإسلام غير الأمـة . ولا مرجع فيه للمسئـولية العامة غير الأمة ، ولا تعارض بين هـذا ، وبين نصوص الكتاب والسنة النبـويـة الشريفـة ، ذلك أنها تأمـر بنصـوص الكتـاب والسنـة ، وهى المسئـولـة عن صـوابها وخطئها حيث إئتمـرت بـه ، واتفقت عليـه ، أو

اختلفت فيه .

وأول ما تكرر من ذلك الحق كان فى حياة النبى - ﷺ - فإنه كان مأمورا بمشاورة أمته ، وكان الأمر بينهم شورى فى كل شأن من الشئون غير التبليغ الذى خصه الله به ، ولولاه لم تكن الدعوة إلى هذا الدين .

ولقد أدرك المؤلف مدى أهمية موضوع الأسرة بالأمة وعلاقته بالأمة وما دار حوله من شبهات ، وإرهاصات .

لذلك أتبع الأمة بالأسرة فمنها تعلم النوع الإنسانى أفضل أخلاقه الإجتماعية ، وهى فى الوقت نفسه أجمل أخلاقه ، وأنفعها .

ومنها أيضا تعلم النوع الإنسانى الرحمة والكرم .

وبالأسلوب الشيق الأخاذ يأخذ المؤلف بيد القارىء إلى معرفة أهم ما تقوم عليه الأسرة فى الإسلام فهى كيان دائم تراد له السعة والامتداد والوئام وتتحقق سعة الأسرة وامتدادها ووئامها بنظامين من النظم التى شرعها لها الإسلام وهما :

١ - نضام المحارم فى الزواج .

٢ - نظام الميراث .

فالإسلام يحرم الزواج بالأقربين ، ولا يبيح من ذوى القرابة إلا من أوشكوا أن يكونوا غرباء - فالزواج يجمع منهم فى الأسرة أو من أوشكوا أن يتفرقوا كأبناء العمومة والخؤولة .

يقول سبحانه وتعالى فى سورة النساء :

﴿حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم وعماتكم وخالاتكم ...﴾ .

* * * *

ويشرع الإسلام نظام الميراث لأن الأسرة كيان يعيش ، ويتصل عمره

بعـد انقضـاء أعمار أعضائه ، ولا اعتراض على نظـام الميراث من وجهـة النظر إلى طبائع الأحياء ، ولا من جهـة النظر إلى المصلحة الاجتماعية فإن الأبناء يـرثون من آبائهم ما أرادوه ، ومـا لم يريدوه ، وحق لهم أن يرثـوا ما خلفوه من عروض كما ورثوا عنهم ما خلفوه من خليقة لا فكاك منها .

ويستطرد المؤلف إلى وئام الأسرة يتحقق بما فرضه الإسلام من حقوق لكل عضو مـن أعضائها ، فـلا حق لإنسان على إنسـان أعظم من حق الآباء ، والأمهات فى الإسلام على الأبناء والـذرية ، وبحسبك أنه كاد أن يكون البر بهم مقـرونا بالإيمان بوحـدانية الله ... يقول سبحانـه وتعالى فى سورة الأنعام :

﴿قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا﴾ .

أما حقوق الأسرة من حيث الروابط الزوجية ، فقد جاء الإسلام فيها بالجديد الصالح ، وأقام حقوق الزوجين على أساس العدل بينهما ، وأقام العدل على أساس المسـاواة بين الحقوق والواجبات وهى المسـاواة العادلة حقا .

ولم يهبط الإسلام بمنزلة المرأة فى جانب من جوانب حياتها العامة أو حياته البيتية التى وجدهـا ولكنه ارتفع بها من الدرك الذى هبطت إليه فى الحضارة الغابرة ، وعقـائد الأمم التى تأثرت بتلك الحضارات . فالمرأة فى الحضارة الـرومانيـة كانـت تابعاً لـه حقوق القـاصر أو ليست لـه حقوق مستقلة على الإطلاق .

وكـانت فى الحضـارة الهنـدية عـائقـا للخـلاص من دولاب الحيـاة الجسدية ، وخـلاص المرء مرهون - بالموكشا - أى بـالانفصال عنها ... وكـان حقها فى الحيـاة منتهيا بإنتهـاء أجل الـزوج تحرق على جسده عنـد

وفاته، ولا تعيش بعده حتى لا تلاحقها اللعنة الأبدية .

وكان للمرأة فى الحضارة المصرية القديمة حظ من الكرامة مع أن الأمة المصرية كانت من الأمم التى شاعت فيها عقيدة الخطيئة بعد الميلاد ، وشاع فيها مع اعتقاد الخطيئة الأبدية أن المرأة هى علة تلك الخطيئة وخليفة الشيطان ، ولا نجاة للروح إلا بالنجاة من أوهاقها وحبائلها .

وكانت معيشة البداوة فى الجاهلية العربية تمنح المرأة بعض الحرية لأنها كانت عضواً نافعاً فى تلك المعيشة البدوية ... لكن هذه المعيشة البدوية نفسها كانت ترغب الآباء فى ذرية البنين وتزهدهم فى ذرية البنات لأن البنين جند القبيلة ، وعدتها فى شن الغارات ، والتأهب لردها ومن هؤلاء الآباء من كان يئد البنات اشفاقا من العار إن لم يئدهن خشية إملاق ... وإلى ذلك يشير القرآن الكريم فى سورة النحل :-

﴿وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه فى التراب ألا ساء ما يحكمون﴾ .

كان هذا شأن المرأة ... لا منزلة مرضية ، ولا حقوق مرعية فى وطن من أوطان الحضارة أو البداوة فلما بعث النبى - ﷺ - بالدعوة الإسلامية رفع الإسلام عن المرأة هذه الوصمات ، وخوّلها من الحقوق ما تساوى حقوق الرجل فى كل شىء إلا فى حق القوامة .

﴿الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض ، وبما أنفقوا من أموالهم﴾ .

﴿ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف ، وللرجال عليهن درجة﴾ .

* * * *

ومادمنا نتابع موقف الإسلام من المرأة فلابد لنا من معرفة رأيه

بالنسبة لموضوع تعدد الزوجات يقول المؤلف :

«لم يأت الإسلام ببدعة فيما أباح من تعداد الزوجات وإنما الجديد الذى أتى به أنه أصلح ما أفسدته الفوضى من هذه الإباحية المطلقة من قيد ، وأنه حسب حساب الضرورات التى لا يغفل عنها الشارع الحكيم ، فلم يحرم أمرا قد تدعوا إليه الضرورة ، ويجوز أن تكون إباحته خيراً من تحريمه فى بعض ظروف الأسرة أو بعض الظروف الاجتماعية العامة ، لكن الإسلام مع ذلك اشترط العدل ، ونبه الرجال إلى صعوبة العدل بين النساء مع الحرص عليه .

يقول سبحانه وتعالى فى سورة النساء :

﴿فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة﴾ .

﴿ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم﴾ .

وتحتوى الشريعة الإسلامية تفصيلاً مسهبا عن حقوق كل من الزوجين قبل الآخر ، وقبل الأسرة فى مجموعها ، وكلها تتجه إلى هذه الغاية المقصودة من إقامة الأسرة على المودة والرحمة .

وكانت لفتة من المؤلف أن يقف عند موضوع هام هو موضوع زواج النبى ، ذلك أنه يندر أن يطرق خصوم الإسلام موضوع الزواج دون أن يعرجوا منه إلى زواج النبى ، ويتذرعوا به إلى القدح فى شخصه الكريم والتشكيك من ثم فى دعوته المباركة ، ودينه القويم .

وما اتفق خصوم الإسلام عن سوء نية على شىء كما اتفقوا على خطة التبشير فى موضوع الزواج على الخصوص فكلهم يحسب أن المقتل الذى يصاب منه الإسلام فى هذا الموضوع هو تشويه سمعة النبى - ﷺ - وتمثيله لاتباعه فى صورة معيبة لا تلائم شرف النبوة ، ولا يتصف

صاحبها بفضيلة الصدق فى طلب الإصلاح .

وأنهم - أى هؤلاء الخصوم - لعل أشد الخطأ فى اختيارهم هذه الخطة بعينها إذ أن جلاء الحقيقة فى هذا الموضوع أهون على المسلم العارف بدينه المطلع على سيرة نبيه ، فإذا بمعتلهم المظنون حجة يكتفى بها المسلم ولا يحتاج إلى حجة غيرها لتعظيم نبيه وتبرئة دينه من قالة السوء الذى يفترق عليه .

فلا حجة للمسلم على صدق محمد - صلوات الله وسلامه عليه - فى رسالته صدق من سيرته فى زواجه وفى اختيار زوجاته وليس للنبوة من آية أشرف من آيتها فى معيشة نبى الإسلام من مطلع حياته إلى يوم وفاته .

* * * *

وما أن ينتهى موضوع زواج النبى حتى يطالعنا المؤلف بموضوع آخر يدور حول معنى الطبقة فى المجتمع يقول :-

«الطبقة فى المجتمع هى الفئة التى تتشابه به فى درجة العمل ونمط المعيشة ، ومأثور الخلق والعادة ، وهى - بعد الأمة والأسرة - أكثر الوحدات الاجتماعية ذكراً ، وأكبرها خطراً فى العصر الحاضر .

وخير المجتمعات إذن مجتمع يسمح للكفايات والمزايا الخلقية بالمجال الذى يناسبها فى الحياة العامة ، ولكنه لا يسمح لها بأن تحرم أحداً حقوقه ، أو تقف بينه وبين مجاله الذى استعد له بما هو أهله ولو لم يولد منه ، ولم يكن منه بالنسب والوراثة .

وهذا المجتمع هو الذى يأمر به الإسلام ، ويحمده ويزكيه بتعاليمه ووصاياه ، فهو لا يمنع التفاوت بين أقدار الناس وإن كانوا من الأنبياء والمرسلين يقول سبحانه وتعالى فى سورة البقرة :

﴿تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلّم الله ، ورفع

بعضهم درجات﴾ .

ولا يسوى الإسلام بين العلماء والجهلاء ، ولا بين المؤمنين فى صدق الايمان **﴿هل يستوى الذين يعلمون ، والذين لا يعلمون﴾** .

وليس من العدل فى الإسلام أن يختلف الناس فى العمل ويتساووا فى الأرزاق فهم مختلفون فى درجات الرزق كإختلافهم فى درجات العلم أو فى الرزق لا يقوم على النسب الموروث ، ولا على الغصب والسطوة ، وإنما يقوم على العمل ، ولا يحق لأحد أن يحتفظ به إلا بمقدار ما يبتغى فيه بعمله .

وينتهى المؤلف إلى أن يقول أنه لا تحل مشكلة الطبقات إلا بإزالة حرب الطبقات ، فالعالم بخير مادام فيه أنواع الكفايات وفوارق المزايا والصفات ، ومادامت هذه الأنواع والفوارق فيه يتمم بعضها بعضا ، ويجرى بعضها على معونة بعض ، والعالم على شر ما يكون إذا زال فيه كل خلاف بزوال الأداة المختلف عليها يتنازع الناس الأموال فتزول الأموال وما هم فى الحق بقادرين على إزالة شيء واحد يتنازعون عليه ، ولو أزالوا فوارق الأرزاق لم يزيلوا الفوارق بينهم على الذكاء والغباء أو على القوة والضعف أو على الجاه والخمول أو على الوسامة والدمامة أو على الذرية والعقم ولو أنهم أزالوها لزالوا أجمعين ، ولكنهم باقون برحمة الله ولا يزالون مختلفين .

ومن موضوع الطبقة انتقل المؤلف بنا إلى موضوع آخر هام طالما شغل الانسانية فترة طويلة من الزمن هو ... الرق ، شرع الإسلام العتق ، ولم يشرع الرق إذ كان الرق مشروعا قبل الإسلام فى القوانين الوضعية والدينية بجميع أنواعها ... رق الأسر ... رق السبى فى غارات القبائل بعضها على بعض ... ورق البيع والشراء ،ومنه رق الاستدانة أو الوفاء

بالديون ... وكانت اليهودية تبيحه ... ونشأت المسيحية وهو مباح فلم تحرمه ... ولقد رجع بنا المؤلف إلى مذهب أرسطو فى الرق الذى يقرر أن فريقاً من الناس مخلوقون للعبودية لأنهم يعملون عمل الآلات التى يتصرف فيها الأحرار ذوى الفكر والمشيئة .

وأيضا يعرج بنا المؤلف إلى رأى أفلاطون أستاذ أرسطو الذى كان يقضى فى جمهوريته الفاضلة بحرمان العبيد حق المواطنة واجبارهم على الطاعة والخضوع للأحرار من سادتهم أو من السادة الغرباء ، ومن تطاول منهم على سيد غريب أسلمته الدولة إليه ليقتص منه كما يريد .

وإذا ما تركنا أفلاطون وأرسطو على وجه الخصوص وجدنا الحضارة اليونانية كلها وقد شرعت نظام الرق العام ، كما شرعت نظام الرق الخاص ، أو تسخير العبيد فى خدمة البيوت والافراد .

وهكذا فالباحث يجد أن العالم انقضى عليه عصور بعد عصور هذا النظام شائع فى أرجائه ... وعلى هذه الحالة أيضا كان العالم كله يوم مبعث الدعوة إلى الإسلام ... والذى أباحه الإسلام من الرق مباح اليوم فى أمم الحضارة التى تعاهدت على منع الرقيق منذ القرن الثامن عشر إلى الآن لأن هذه الأمم التى اتفقت على معاهدات الرق تبيح الأسر واستبقاء الآسرى إلى أن يتم الصلح بين المتحاربين على تبادل الأسرى أو التعويض عنهم بالفداء والغرامة ، وهذا هو كل ما أباحه الإسلام من الرق أو الأسر على التعبير الصحيح . يقول سبحانه وتعالى فى محكم آياته : ﴿فإما منا بعد وأما فداء حتى تضع الحرب أوزارها﴾ ﴿والذين يبتغون الكتاب مما ملكت ايمانكم فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيراً وآتوهم من مال الله الذى أتاكم﴾ .

وبعد أن يرد المؤلف على فرية إباحة الرق فى الإسلام - ويبين

المقصود من تلك الإباحة أنها ما اتفق على تسميته حديثا بمعاهدات الأسرى فى الحروب ... نراه يقدم لنا فصلا تحت عنوان حقوق الحرب يقول : -

«شاع عن الإسلام أنه دين السيف ، وهو قول يصح فى هذا الدين إذا أراد قائله أنه دين يفرض الجهاد ، ومنه الجهاد بالسلاح ولكنه غلط بين إذا أريد به أن الإسلام قد انتشر بحد السيف أو أنه يضع القتال فى موضوع الاقناع .

وقد فطن لسخف هذا الادعاء كاتب غربى كبير هو توماس كارليل صاحب كتاب - الأبطال وعبادة البطولة - فإنه إتخذ محمداً - ﷺ - مثلا لبطولة النبوة وقال ما معناه .

«إن اتهامه بالتعويل على السيف فى حمل الناس على الاستجابة لدعوته سخف غير مفهوم ، إذ ليس مما يجوز فى الفهم أن يشهر رجل فرد سيفه ليقتل به الناس أو يستجيبوا لدعوته ، فإذا آمن به من يقدرون على حرب خصومهم فقد آمنوا به طائعين مصدقين ، وتعرضوا للحرب من أعدائهم قبل أن يقدروا عليها» .

وبعد أن عرض لنا المؤلف شيئاً من أقوال أحد كتاب الغرب استطرد يقول : - ولم يعمد المسلمون قط إلى القوة إلا لمحاربة القوة التى تصدهم عن الاقناع ، فإذا رصدت لهم الدولة القوية جنودها حاربوها لأن القوة لا تحارب بالحجة والبينة ، وإذا كفوا عنهم لم يتعرضوا لها بسوء ... لذلك سالموا الحبشة ولم يحاربوها ، ولذلك حاربوا الفرس لان كسرى أرسل إلى عامله فى اليمن يأمره بتأديب النبى أو ضرب عنقه ، وإرسال رأسه إليه .

وحاربوا الروم لأنهم أرسلوا طلائعهم إلى تبوك فبادرهم النبى -ﷺ- بتجريد السرية المشهورة إلى تخوم الحجاز الشمالية ، وعادت

السرية بغير قتـال حين وجدت فى تبوك أن الروم لا يتأهبـون للزحف على بلاد العرب آنذاك .

وفى الجزيرة العربيةنفسهـا لم تقع حرب بين المسلمين وقبائلها إلا أن تكون حرب دفاع أو مبادرة إلى إتقاء الهجوم المبيت فى أرض تلك القبائل ، فهذا حق السيف كما استخدمه الإسلام فى أشـد الأوقات حاجة إليه حق السيف مرادف لحق الحياة ، وكلما أوجب الإسلام فإنما أوجبه لأنه مضطر إليـه أو مضطر إلى التخلى عن حقـه فى الحياة ، وحقـه فى حريـة الدعـوة والاعتقاد ، فإن لم يكـن درءا للعدوان والافتيات على حق الحيـاة ، وحق الحرية فالإسلام فى كليته هو دين المحبة والسلام .

* * * *

ولقد حـرص المؤلف على أن يعرض موضـوع له أهميتـه إذ يقع عليه تبعة الأمة كلها ... ألا وهو الإمام ، وحقه على أبناء أمته ...

الإمام فى الإسلام هـو وكيل الأمة فى إقامة حـدود الله فحقه مرادف لحق الأمة ما قام بهذه الأمانة ، لأنه يتولى الإمامة لإيتاء كل ذى حق حقه ويملك الأمر ، وتجب له الطـاعة فيما تدعو مصلحـة الأمة فيه إلى تشريع جديد .

وليس للإمام أن يعطل حداً من حدود الله ، وليس له أن يقيم حداً منها فى غير موضعه .

وعلى الإمام أيضا تقع تبعة الأمة كلهـا فى تقدير مصالحها وضروراتها وتقـدير مـا يترتب على هذه المصـالح والضرورات من إجراء الأحكـام أو وقفها أو التوفيق بينها وبين أحوالها .

ولم يترك المؤلف القــارىء دون أن يفصل لـه الكثير من الضــوابط والآداب التى لابد أن تتصف بها الإمامـة ذلك لأنها مصدر التشريع لكل

زمن بما يستجد فيه ، ولكل حالة بما يناسبها .

وينهى المؤلف موضوع حق الإمامة بهذه العبارة :

«وختام القول فى هذا الحق المحيط بجميع الحقوق - حق الإمامة - أنه باب مفتوح للتشريع فى كل عصر ، وكل مجتمع ، وأنه يكفل للأمة الإسلامية ما يكفله حق السيادة وزيادة ... فلا منفذ لنقد التشريع الإسلامى فى جميع مصادره ما بقى له هذا المصدر مستمداً من ضمير الإنسان وحكمة الله» .

وكان مبحث الأخلاق والآداب آخر مباحث الكتاب يقول المؤلف :

«قد توصف الأخلاق فى الإسلام بأنها - أخلاق محبة - لأن أصول العلاقات بين الناس قائمة فى الإسلام على شرعة المحبة والأخوة كأنهم من أسرة واحدة ... ولكن الإسلام ينكر من المسلم أن يحب الخبيث كما يحب الطيب ، ويعرف العداوة فى الحق كما يعرف الصداقة فيه .

وليس قوام الأخلاق كله فى التوسط أو فى القصد والاعتدال على مذهب الفلسفة اليونانية أو فلسفة أرسطو على الخصوص ، وليس مآل الأخلاق كله فى الإسلام إلا وحى المجتمع أو وحى الإنسانية لا ترتفع إلى ما فوق جوانب الضعف فيها إن لم يكن لها من المثل العليا ما يسمو عليها أو تسمو هى إليه جيلا بعد جيل .

وكعادة المؤلف فى مقارناته المفيدة أورد لنا تعريف أخلاق القوة عند كل من : هوبز وفردريك نيتشه الذى يقسمها إلى :

١- قسم للسادة لا يقبله العبيد .

٢- قسم للعبيد لا يقبله السادة .

وليس بين الفريقين جامعة إنسانية تلتقى بهم فى صفة من الصفات، بل هم أعداء يتسلط منهم القادر على العاجز ولا يحسن

بالمتسلط أن يقبل من العاجـز غير الخنوع والهبوط فى الذلـة من هاوية إلى هاوية ، لا نهاية لها غير الإنقراض والفناء .

وظاهـر أن مذهب نيتشه بهذه الصـورة ، وتلك التقسيمات يناقض جميع الأديان الإلهية .

وتفسير هوبـز للقوة لا يقـرب أيضا مـذهب القـوة كثيراً إلى حقيقة الأخلاق الإسلامية لأن الإسلام لا يحمد من الأخلاق أنها حيلة ملتوية أو مستقيمة إلى طلب القوة ، بل يحمد منهـا فى كل شأن من شئون الإنسان أنها وسيلة إلى طلب الكمال .

و يستطرد المؤلف إلى أن مـدارس الأخلاق فى زماننا تـؤول بالفضائل كلها إلى بـاعث واحد وهو بـاعث المصلحة الاجتماعية أو بـاعث الغرائز النوعية التى يتصل بها بقاء نوع الانسان .

و ينتهى بنا إلى أن الأخـلاق الإسلامية لا يمكن أن تـدخل فى نطاق مذهب القوة فى فلسفة نيتشه أو مذهب الطبقة فى فلسفة الماديين .

ذلك لأنـه لابـد من الفضـائل الإلهيـة فى تعليم الإنسـان مكـارم الأخـلاق ومـا اكتسب الإنسان أفضـل أخلاقـه إلا من الإيمان بمصـدر سماوى يعلو بـه عن طبيعة الارضيـة ... وهذا هو المقيـاس الأوفى لمكارم الأخلاق والآداب الإسلامية .

و بعد

فهل لنا بعد هذه الاشراقات الممتعة لاستـاذنا الراحل عباس محمود العقاد أن نردد معه ما قاله :

«نحن لم نكتب فصول هـذا الكتاب لنبشر بالإسـلام هؤلاء الماديين المتعطشين إلى إنكار كل معنى شريف من معانى الحيـاة البشرية ، ولكننا كتبناه للمتـدين المنصف الذى يستطيع أن ينظر إلى دينه و إلى هـذا الدين

نظـرة واحدة ، وكتبنـاه أولاً وآخـراً للمسلم الذى يتلقى حملات خصـوم الإسلام مع المتدينين وغير المتدينين ليعلم أنه خليق أن يطمئن إلى حقائق دينـه فى هذا العصر سـواء نظـر إليها بعين العقل أو بعين الإيمان ، وأنـه خليق أن يـواجه الغـد بما يؤمن بـه من عقائد دينـه ومعامـلاته وحقـوقه وآدابه وأخلاقه فلا يعوقـه عائق منها أن يجارى الزمن فى المستقبل إلى أبعد مجراه» .

وإلى هنا أخـى القارىء الكريـم نودع إحـدى الذخائر التـى أثرت المكتبة الإسلامية بحرارة وداعنا لمؤلفـه العملاق الذى سنظل نذكره بالخير فى مماته ، كما ذكرناه فى حياته .



الإسلام وحاجة الإنسانية إليه

لقد عـرفت الإنسانية منـذ فجر التاريخ كثيراً من الأديـان السماوية منها وغير السماوية حملتها رسل الله سبحانه وتعالى إلى البشرية جمعاء ... حتى كـان الإسـلام ذلك الديـن السمح خاتم رسـالات الله ... والـذى ارتضاه للنـاس ديناً قيماً . . سلامـاً فى إسمه سلامـاً ساعة نـزوله . يحس العالم ، وتحس الإنسـانية دائم الحاجة إلى تعـاليمه ، وشريعتـه ، شريعة الحق شريعة الله .

حول هـذه المعانى كان كتـاب : «الإسلام وحـاجة الإنسانيـة إليه» للأستـاذ الدكتور/ محمـد يوسف مـوسى ، الذى قسمه إلى خمسـة أقسام تحت كل قسم منها عدة فصول :

(أ) كان القسم الأول عن معنى الإسلام والحاجة إليه وخصائصه .

(ب) ويـدور القسم الثـانى حول علـم التوحيـد والعقـائد ومعنى عدالة الله ورحمته .

(ج) أما القسم الثـالث فقد تعـرض الكاتب فيـه إلى النبوة والبعث النبوى .

(د) كما كـانت الشريعة الإسـلاميـة معنى وخصـائص ، ماضيـاً ومستقبلاً ، هى موضوعات القسم الرابع من الكتاب .

(هـ) وفى البـاب الخامس خاتمة الكتاب يقدم لنـا المؤلف فيه معنى تربية الفرد وإصلاح المجتمـع والسلام العالمى ... وهو الإطار

الذى يشكل مقاصد الإسلام وغاياته .

ولنستعرض الكتاب من بدايته لنقف عند الفصل الثانى بعنوان «الحاجة إلى الإسلام» حيث قدم لنا المؤلف صورة صادقة عما كانت عليه البشرية من فساد وظلم واضطهاد ، وكيف كان الإسلام ثورة على المجادلة الجوفاء فى العقيدة ، بل كان إنقاذاً سريعاً أخرج الناس من الظلمات إلى النور ، ومن ضيق الظلم إلى رحابه العدل ، بل كان الأمل الذى تطلعت إليه الإنسانية زمناً طويلاً فهو خاتم الأديان ، وله من الخصائص ما ينفرد بها وحده فهو دين الوحدة الدينية والوحدة السياسية والوحدة الاجتماعية ، ودين العقل والفكر ، ودين الفطرة والوضوح ، ودين الحرية ، والمساواة ودين الانسانية . . لذا كله فهو دين منه الدولة .

يقول المؤلف فى معنى الوحدة الدينية : الإسلام دين الوحدة لا التوحيد فقط فقد أخذت كلمة التوحيد معنى خاصا لا تعدوه وهو القول بإله واحد خلق السموات والأرض ، وما بينهما وإليه وحده يرد الأمر كله ، وذلك فى مقابلة القول بإلهين إثنين أو آلهة متعددة .

وإذا تركنا معنى الوحدة الدينية جانباً نرى الوحدة الاجتماعية التى قررها الإسلام فى هذه الناحية بلغت من الروعة والكمال حد الإعجاب ، وصارت لهذا مضرب المثل تتحدى التاريخ كله والأمم جميعا .

لقد محا الإسلام أول الأمر النعرة الجاهلية ، وحرم التفاخر بالأحساب والأنساب إذ أبان أن أصل الناس جميعا واحد ، وهذا إذ ينادى كتابه : ﴿**يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم**﴾ .

وهذا أيضا إذ يقول رسولنا – صلوات الله وسلامه عليه – :

«كلكم لآدم وآدم من تراب ، لا فضل لعربى على عجمى إلا

بالتقوى» .

وإذن فلا تفاضل بالأجناس والأنساب أو الغنى أو الجاه أو غيرهما ، وذلك مما تعارفه الناس مقياسا للقيم وأساساً للتفاضل .

والإسلام دين العقل والفكر ما فى هذا من ريب ، وبذلك يشهد القرآن الكريم الذى يشيد بالعقل فى كثير من آياته ، والرسول العظيم فى كثير من أحاديثه ، ويدل لذلك أيضا عقائده التى جاء بها ، وأصوله التى قام عليها .

ولعل من أهم خصائص الإسلام التى تميزه أنه دين الفطرة والوضوح ، الفطرة السليمة التى فطر الله الناس عليها ، ودين الوضوح الذى لا يجعل العقل يقف حسيراً عاجزاً عن فهم بعض ما جاء به وإدراكه ، وبهذا وذاك يخاطب العقل والقلب والوجدان معا .

ومن خصائص الإسلام أيضا أنه دين الحرية بكل ما لهذه الكلمة من معانٍ ومدلولات عند الغربيين ، وعند العرب على السواء ، فقد حرر الإسلام الضعيف من القوى وسلطانه فقد كان العرب وغيرهم من الأمم السابقة يحرمون من الميراث الضعيفين : المرأة والأولاد الذكور الصغار ، كما كانوا لا يورثون الزوجة ، بل يعتبرونها - نفسها - من جملة ما تركه الزوج من الميراث .

والإسلام ليس عقيدة دينية فقط ، ولا نظاماً أخلاقياً فحسب ، بل هو دين ودولة بكل ما تتسع له كلمة دولة من معنى ومدلول ، فالإسلام نظام شامل وكامل بلا ريب ، فهو يحكم الإنسان وتصرفاته فى كل حالاته فى خاصة نفسه ، وفى علاقته بالله تعالى وفى صلته بأسرته ، وفى علاقاته العديدة المختلفة بالمجتمع الذى يعيش فيه ، وفى علاقات الدولة الإسلامية بالدول الأخرى ، فهو ينظم كل هذه الأحوال

والعلاقـات ، وذلك ببيان الأصول والمبـادىء العامة التى تقـوم عليها ، والقواعد والقوانين والنظم التى تحكمها على اختلاف أنواعها :

ولننتقل مع مؤلفنـا إلى القسم الثانى من الكتـاب حيث يحدثنا عن نشأة علم الكلام وتطوره فيقول :

«التوحيد هو اعتقاد وجود الله الـواحد الأحد الذى لا شريك له فى ذاته أو صفاته ، أو أفعاله ، والـذى بعث الرسل لهداية العالم والإنسانية إلى طـريق الخير ، والذى يسأل العبـد فى الحياة الأخـرى ويجزيه على مـا عمل فى الحياة الدنيا من خير أو شر ، وقـد نشأ هذا العلم فى الإسلام كما فى الأديان الأخرى السابقة لعوامل اقتضت نشـأته ثم جد ما جعله يتطور من حال إلى حال» .

ثم ينتقل إلى بحث وجود الله سبحـانه ومعرفته وحـدوث العالم عنه حيث يورد لنا الآيـة الكريمة **﴿قل انظـروا ماذا فى السمـوات والأرض وما تغنى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون﴾** .

والآية الشريفة : **﴿أولم ينظروا فى ملكوت السمـوات والأرض ، وما خلق الله من شىء وان عسى أن يكـون قـد اقترب أجلهم فبأى حـديث بعده يؤمنون﴾** .

تلك الآيات الكريمة هى مفتاح الدليل على وجود الله تعالى ومعرفته والدليل على وحدانيـة . ويستوقفنا المؤلف بأسلوبـه الفلسفى الشيق عند الفصل الثانى من القسم الثـالث وموضوعه البعث والحيـاة الأخرى يقول :-

«إن البعث والانتقال من هذه الحياة الدنيا إلى الحياة الأخرى الخالدة أمر يتفـق فيه العقل والـدين أو كما يقول الفيلسـوف ابن رشد : هـو أمر إتفقت عليه الشرائع ، وقامت عليه البراهين عند العلماء وذلك لأن يعتبر

تحقيقها بأفعاله ثمرة وجوده فى الدار الدنيا ، فلا مناص إذن من أن يبعث بعد موته ليؤدى حساباً عما عمل فى سبيل هذه الغاية ، وفى هذا يقول الله العليم فى سورة «المؤمنون» .

﴿أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا ، وأنكم إلينا لا ترجعون﴾ .

وكانت الشريعة الإسلامية فى تعريفها ونشأتها وتطورها ، ومدى الحاجة إليها هى موضوعات القسم الرابع من الكتاب يقول المؤلف فى تعريفه للشريعة «يراد بالشريعة كل ما شرعه الله للمسلمين من دين سواء أكان بالقرآن نفسه أم بسنة الرسول - ﷺ - فهى لهذا تشمل أصول الدين أى ما يتعلق بالله وصفاته ، والدار الأخرى ، وغير ذلك كله من بحوث علم التوحيد أو علم الكلام» .

كما يقول المؤلف فى الحاجة إلى الشريعة وخصائصها :-

ظهر الإسلام والعرب بل العالم كله فى أشد الحاجة إليه فأتاهم العقيدة الحقة والشريعة الصحيحة والنظم التى يقوم عليها المجتمع والأمة لتسهم فى بعث العالم ونهضته وإخراجه من الظلمات إلى النور . وكان من هذه الشريعة والنظم ما نسميه بالفقه أو التشريع الإسلامى .

وأهم خصائصه :

١- إنه يرجع فى أسسه العامة إلى وحى الله تعالى .

٢- التمهيد لأحكامه بوازع الدين والأخلاق .

٣- جزاؤه دنيوى وأخروى معا ، ونزعته جماعية .

٤- قبوله للتطور حسب بيئات الزمان والمكان .

٥- غايته تنظيم الحياة الخاصة والعامة وتيسيرها وإسعاد العالم كله .

أمـا القسـم الخامس من الكتاب فكـان بعنوان : مقـاصد الإسـلام وغاياتـه تناول فيه المؤلف ثلاثة قضـايا الأولى تربية الفرد والثـانية اصلاح المجتمع .

أما الثالثة فكانت عن السلام العالمى . يقول فى تربية الفرد :-

«من المعروف أن الفرد هو اللبنـة الأولى التي يتكون منها المجتمع ، ويقوم عليها فمتى نشأ الفرد تنشئة صالحة صلح المجتمع بلا ريب .

وهنا نجد الإسلام قد عنى عنايـة كبيرة بتربية الفرد عناية لا نجدها - من ناحية الشمول والتفصيل - فى ديـن آخر من الأديان السماوية التى جاءت قبله» .

ويقول فى إصلاح المجتمع :

«أول حلقة فى سلسلة المجتمع التى تمتد حتى تشمل العالم كله هى الأسرة وهناك نجد الإسلام قـد حاط الأسرة بكل الحقوق والضمانات التى تجعلهـا أسرة هانئـة حقـاً ، والتى تجعل منهـا عدة ومـدداً لمجتمع سليم سعيد إذا قـام كل من أفرادها بمالـه من حقوق وما عليـه من واجبات كما يفرضه الإسلام» .

ويقول المؤلف فى السلام العالمى :

«الإسلام ليس دينا مغلقاً على شعب واحـد أو أمة واحدة ، بل هو دين مفتوح لكـل من يطلب الحق ، ويؤمن بـه ، هو دين عـالمى للناس جميعـا فى جميع العصور لـذلك كان من الطبيعى ان يـرعى الإسلام هـذه الحقيقة الواضحة ، وأن يعمل على أن يعيش الناس بسلام فى جميع أنحاء العالم وفى كل الأزمان وتنجلى هذه الرعايـة من نواح عديدة مختلفة ، فهو لا يعادى غير المسلم بل يساعده ويحض على حسن معـاشرته د فالإسلام من أهدافـه الساميـة أن يعيش العالم كلـه فى سلام . . وهـذا ما أخـذ به

المسلمـون أنفسهم فى السلم والحرب ، وكـان له أثـر طيب على الإسـلام والمسلمين والعالم أجمع .

وهكذا تنتهى جـولتنا مع إحـدى ذخائر الكتبـة الاسلاميـة والذى جعلنا نتسائل ونخرج من تساؤلنا أنـه لا يوجد وسيلة لاصلاح هذا العالم الذى نعيش فيه سوى هذا الدين الإسـلامى نؤمن به حقا ، ونفهمه حق الفهم ، ويكون منا دعاة وزعماء مخلصـون ، دعاة وزعماء يجعلون حياتهم وقفاً على الدعوة إليه ، ويرون سعادتهم فى القيام به ، ويكونون فى سرهم وعلانيتهم مُثلاً طيبة وقدى صالحة تدعو وحدها إلى الإسلام .

وهكذا فإن الـدين الإسلامى لايزال العـالم فى حاجة شديـدة إليه ، ولا خـلاص للإنسـانية ممـا تعانيـه إلا بالإيمان بـه واتباعـه ، فهو الآمـر بالمعروف والناهى عن المنكر ، والداعى إلى الحق وإلى الصراط المستقيم .


القرآن والمنهج العلمى المعاصر

القرآن كتاب الله الجامع ، ولا يكون جامعا إلا والمجموع فيه أمور كلية ، وله منهـاج تتبعه العقول والقلـوب لإدراك معانيـه ومراميه وإجـراء ما لا يتناهى من الحوادث على قواعده التى تهدى للتى هى أقوم وتبشر المؤمنين بغـد أفضل ، يتأدون إليه بـالتفكير الحر ، والابتكار المستمـر ، والعمل الصالح لعمارة العالم الذى استخلف الله فيه عباده .

والإسلام جامع بين الـدين والشريعة ، أما الدين فبينـه كله ، وأما المعاملات فبين أصولها وأثبت أصـل الاجتهاد بين أصول الفقه ، ليصيره العلماء منهجـاً عامـاً للتفكير اةسلامى ويـزدهر على أغصـانه كل فـروع العلم . حتى إذا انتقلت العلـوم الإنسـانيـة إلى أوربـا كـان المنهج أرقى بـالفكـر ، وأبقى على الـدهر حتى التـزمتـه أوربـا وأصبح من المسلمات العمليـة أن المنهج العلمى المعــاصر يمت إلى المنهج الإســلامى بأوثق أسبابه .

عزيزى القارىء :

هناك من الكتب ما يواكب أحداث العصر . . وهناك من الأساتذة الكتاب من يكتب لكل عصر .

من هذه الكتب «القرآن المنهج العلمى المعاصر» .

ومن اعلام الكتاب الأستاذ عبد الحليم الجندى .

يؤكد الكتـاب أن المنهج العلمى المعاصر يمت إلى المنهج الإسلامى

بأوثق أسبابه .

وتبدأ الدراسة بمصدر المنهج وهو القرآن وإعجازه فى أساليبه وألفاظه ثم تستعرض أصول الفقه الإسلامى وعمل العلماء به ، وتتناول بعد ذلك علامات الطريق التى سلكتها أوربا إلى علوم العرب مرحلة فمرحلة .

كما تقدم هذه الدراسة منهج «بيكون» الذى ساد القرن السابع عشر الميلادى ، وكيف احتوى على خصائص المنهج الإسلامى ودقائق وأصول الفقه التى عمل بها المسلمون .

وينهى الكاتب دراسته الشيقة والمتأنية بالحديث عن ثمرات العمل بالمنهج القرآنى الذى يفوق فى دقته وشموله كل المناهج ، والكاتب فى بيان عمل المسلمين فى هذا الصدد استقرأ أعمال عشرين من الأعلام الذين أضاءت علومهم ظلمات العصر الوسيط ، وغدوا طلائع عصر الأحياء فى أوربا فى الفقه والفلسفة الدينية ، واللغة والنحو فى العلوم الرياضية والفلكية والطبيعية والكيميائية والطبية والصيدلية والفلسفة الاجتماعية .

ومعك عزيزى القارىء نقف عند معالم ما جاء بين دفتى الكتاب . . فكان الباب الأول حول اعجاز القرآن الكريم يقول الحق تبارك وتعالى :-

﴿ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شىء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين﴾ (النحل ٨٩) .

القرآن كلى الشريعة ، ولكل فهم له أو احساس به درجة علم بالدين ، وإيمان به وتبصرة للعقل الإنسانى ، بلسان عربى مبين فى نظم عجيب وأسلوب مخالف لأساليب العرب ، خارق لعاداتهم ومألوفهم ،

من فصاحة وبلاغة فى تهذيبه وإرشاده وتشريعه ، مما أعجز العامة والخاصة على مدار الزمان .

يقول الزمخشرى عن تفسير القرآن «فالفقيه وإن برز على الأقران . . والمتكلم . . وحافظ القصص (التاريخ) . . والأخبار . . والنحوى . . واللغوى . . لا يتصدى لسلوك تلك الطريق . . إلا رجل قد برع فى علمين مختصين بالقرآن ، وهما علم المعانى وعلم البيان بعد أن يكون آخذاً من سائر العلوم بحظ» .

والمعانى القرآنية بمقاصدها المتنوعة تتغيا حفز الإنسان والأخذ بيده ليتسامى إلى مستوى الجدارة بخلافة خالقه سبحانه فى الأرض وتتخذ لذلك أساليب متعددة ، وموجهة لكل الأزمنة .

ومن أجل ذلك وضع القرآن للبشر مصابيح تضىء الطريق وتهدى إلى عيون الحقائق أو المعانى بمقدار ما يرى أو يدرك كل امرىء فى زمانه أو مكانه .

ولقد بذل العلماء منذ القرون الأولى غاية الجهد فى بيان وجوه إعجاز القرآن وخصائص أسلوبه وتتابعت المؤلفات فى مجاز القرآن ومعانيه . وتتابع العلماء على هذا المنوال طوال القرون ، وهم مجمعون على أن اعجاز القرآن مرده إلى المعانى التى تسكبها أساليب القرآن فى نفوس سامعيه ، والعرب ذوو لسن وبلاغة كانت لغتهم أيام نزول القرآن أعظم اللغات وأعلاها ، وما تزال لها صدارتها بين اللغات التى تكلم بها أهل أوربا بعد ذلك بنحو قرون ثمانية وهى اللغات المتداولة الآن ، وكان طبيعياً أن يقع الاعجاز فيما إختص به العرب .

ويضرب المؤلف أمثلة من إعجاز القرآن الكريم من بين (٦٢٣٦) آية هى مجموع آى الكتاب العزيز .

يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿إن الله يأمر بالعدل والاحسان ، وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون﴾ . (النحل - ٩٠)

عزيزى القارىء :

لعلنا جميعا نرى فى الآية الكريمة عظمة البيان الذى يلائم عظمة محتوى الآية من الأحكام ، كما نرى من جلال أثرها ما يساوى الصدمة الكبرى لإفهام أساطين البلاغة المكابرين فيتضافر جلال الموضوع وأثره وجمال الاسلوب وبدائعه فى بلوغ الغاية .

أولا : فالآية الكريمة من ناحية المعانى أجمع آية للأحكام كما يقول الإمام عز الدين بن عبد السلام وفيها الوجازة والوضوح والشمول والأحكام جماع المعانى العظيمة فى الشريعة .

ثانيا : من ناحية تأثيرها فى النفوس يروى القاضى (عياض) أن الوليد بن المغيرة من سادات قريش وبلغائها - وكان يكيد للنبى ﷺ - لم يكد يسمعها حتى قال : -

«والله إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة وإن أسفله لمغدق وإن أعلاه لمثمر . ما يقول هذا بشر» .

ثالثا : وأما عن الأسلوب فى الآية الكريمة فإنك واجد فى كتاب تحرير التحبير لإبن أبى الاصبع المصرى ما يلى : -

أنه عز وجل أمر فى أول الآية بكل معروف ونهى بعد ذلك عن كل منكر ووعظ فى آخر الآية أبلغ موعظة وذكر ألطف تذكير بألفاظ اتفق فيها ضروب من المحاسن مع كونها ألفاظ الحقيقة وهى صحة الأقسام لأنها استوعبت جميع أقسام المعروف والمنكر والطباقين اللفظى والمعنوى ،

وحسن النسق ، وحسن البيان والايجاز وائتلاف لفظ الكلام فى معناه .

ومن إعجاز القرآن إلى كليات أساسيه فيه ، فالقرآن الكريم فهمه حق فهمه وعمل به بضعة آلاف من الصحابة ، ففتحوا للعلم والحضارة - فى بضع سنين - امبراطوريتين كانتا تحكمان العالم ، مما يعتبر وجه اعجاز علمى عالمى دائم الدلالة للقرآن ورسالة الرسول ﷺ وإعلانا عن حاجة الأجيال التالية ليسبحوا فى بحار معانيه ويستنبطوا أحكامه ويقدموها للناس ، والارشاد والاستنباط هما وجهان من وجوه «حفظ القرآن» ووسيلتان للعمل بأحكامه والاهتداء بهديه .

لقد حفظ الله القرآن فى الصدور وفى الصحف كما يتزايد عدد حفاظه بمرور العصور ، وحفظت معانيه قلوب المسلمين ، ويتزايد العمل بها حيثما عمل بها الافراد والجماعات وإن لم يدينوا بالإسلام .

ولما سبق العالم الاوربى من بضع قرون باعتناق (المنهج العلمى) الذى جاء به القرآن ، كان يسلم بوجه اعجاز عالمى آخر مستمر ملموس يشارك المسلمون وغير المسلمين فى اثباته ، وهذا المنهج العالمى القائم على كليات أساسية منها :

أولا : العلم واستعمال العقل :

والله تعالى يقول : ﴿هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون﴾

(سورة الزمر - ٩٠)

وأمر القرآن باجتهاد العقل ليفتح الأبواب الواسعة لادراك الحقائق ونعى التقليد على المقلدين ، وطالما قدم القرآن الحجج وطالب بها الناس ليهتدوا دائما بالدليل .

ثانيا : الحرية :

الحرية والعقل صنوان فى الإسـلام والحرية لزام للانسـانية ، وعليها تقوم المسئولية ، وحيث تنعدم الحريـة بالقهر أو بالعجز تتعين الهجرة إلى حيث يجد الإنسـان حقـوقه التـى قررتها لـه السماء وفتحت لـه أرض الله الواسعة قال تعالى :

﴿قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين فى الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها﴾ . (سورة النساء - ٩٧)

والحرية فى الإسلام واسعة ومتنوعة : حرية نفس وحرية فكر وحرية قول ومنها حرية العقيدة وحرية الاقتنـاع وحرية الجدال والمطالبة بالدليل وكل أولئك تعبير عن الارارة المستقلـة للإنسـان . لا يكره الإسـلام أحداً على رأى . والقرآن يضع المبدأ فى أقوى العبارات بالنهى والأمر بقوله :

﴿لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغىّ﴾

(سورة البقرة - ٢٥٦) .

ويقول لرسوله : **﴿أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين﴾**

(سورة يونس - ٩٩) .

ثالثا : الإقناع :

والبرهـان عقلى وعملى فى وقت واحـد ، لتشارك الفطـرة الفكـر فى تقـديره وتقـديمه وهـذه الحقيقة ثـابته فى ركن الإسـلام ، فالإيمان اقـرار بـالعقيـدة وعمل بها والمسلمـون من احترامهم للعقل - لا يعتبرون إيمان غير المقتنعين ، أو كما يعبر الإمام محمـد عبده : «وإن التقليـد بغير عقل ولا هداية شأن الكافرين ، والمؤمن لا يكون مؤمنا إلا إذا عقل دينه وعرفه بنفسه حتى اقتنع به» .

ومن صور الاقناع فى القرآن الكريم ، أنه يذكر الآيات ، ويورد النبوات ويستعمل القسم ، ويخاطب الفطرة ، ويبين السنن التى لا تختلف ويستعمل التحدى للمكابر ، وفى كل أولئك احتجاج بواقع لا يمكنهم أن يتماروا فيه وهو الاجتهاد كما يقول الإمام الشافعى يقول الحق تبارك وتعالى : - ﴿ولقد ضربنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل لعلهم يتذكرون﴾ . (الزمر - ٢٧) .

ومن الأمثلة إلى المطالبة بالدليل والبحث والفهم لا بمجرد الحفظ يقول سبحانه وتعالى : - ﴿قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين﴾ (سورة النحل ٦٤). ﴿بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه﴾ (سورة يونس ٣٩) . ويقول تعالى : ﴿مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا بئس مثل القوم﴾ (سورة الجمعة - ٥) .

رابعا : طريقة الدعوة إلى الإسلام :

المنهج طريق برهانى والدعوة فاتحة له فيها خصائصه من حكمة ويسر وطريق الدعوة :

(أ) الحكمة . .

(ب) إذا دعا داع لجدال فأشكل بالمسلم وأمثل فى الاقناع أن يكون جداله بالتى هى أحسن .

(جـ) العدل والتعامل بالمثل .

(د) العفو عن المخطىء والاستغفار له .

خامساً : منهج استقراء الواقع واستعمال العقل للاعتبار :

هـذا واضح فى كثير من السور ففى الآيات من ٤ - ١٨ ومن ٦٦ - ٧٠ ومن ٧٥ - ٨٠ من سورة النحل تبدأ الآيات بستته سبحانه فى

خلقه ثم استعراض أو استقراء الكثير من النعم والظواهر العظمى لخلقه واقتداره ، مما تحس به كل الحواس الانسانية ، وتكرر أن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون أو يؤمنون أو يتفكرون أو يتذكرون لعلهم يشكرون أو يسلمون ، والشكر نتاج فهم وطمأنينة نفس ، والإسلام هو النتيجة المرتجاة .

وبعد استعراض هذا الكثير العظيم مما لا يحيط بوصفه إلا خالق الكون تختتم الآيات بأن هذا القليل من كثير لا يستقصى .

سادسا : النهى عن التقليد وعدم الاستسلام للأوهام :

جمع القرآن فى هذا الباب وجوه الجانب السلبى من تعطيل العقل ليحوطه بسياج واق من العلل التى تتناتج من الجهالة أو الضلالة أو الخوف أو الخرافة لتعطيل الفكر فوردت النصوص فى غير موضع للتنديد بوجوه من الضلال أو التقليد (وهو اتباع رأى الآخرين دون معرفة الدليل) .

وأسبابها آفات مركوزة فى الطباع كإتباع تفكير سقيم ، لأن الغير يقول به ومنها اتباع الظن أو الهوى أو الميل إلى الذات أو إلى آراء السابقين المضللين أو مجاراة أهواء أو أوهام درج عليها الأهل أو المجتمع أو أصحاب السيطرة .

وينهى المؤلف الباب الأول من الكتاب بالإشارة إلى أهم الأمور التى عالجها من خلاله وأجملها فيما يلى : -

أولا : أن المنهج القرآنى موجه إلى الإنسان بجمعه - فطرته وبديهته وأحاسيسه ومداركه وعقله ليستقرىء الواقع ويستنبط الحقيقة كما يخاطب النفس بعناصر الكون الذى هى جزء صغير فيه يؤثر فيها أكثر مما يتأثر بها .

ثانيا : إن الإسلام يجمع بين الـدين والحياة والعلم والعمل ويحرص على الحرية الفكرية والشخصية الإنسانية ، ويفرض استعمال العقل فهو يقول للنـاس : - تأملوا الحقائق وستقودكم الحقـائق إلى الإيمان ولا يقول أحبار الديانات الأخرى آمنوا وسيقودكم الإيمان إلى الحقائق .

ثالثا : إن المنهج الفكرى فى الإسلام لا يفرض نظـرية يلزم بها أحداً بل يقدمها ويترك الحرية كاملة فى الاقناع .

رابعا : ورود النصوص واضحـة صريحة فى النهى عن كل ما يعطل الفكر عن العمل من أوهام وأغاليط أو تقاليد ومزاعم لا يؤيدها دليل ، لينطلق الإنسان حراً فى الآفاق التى حثـه الله على ارتيادها لَيتعلم ويتقدم ويتطور مهتديا بالأصول التى نزل بها القرآن وأوضحتها السنة .

خامسا : إن القرآن جمع من أساليب التهذيب والارشاد والتشريع ما يرفع من مستوى الإنسان إلى حيث تشاء السماء ويأخذ بيده فى كل أطواره بالرحمة والنصفـة ليستحضر على الدوام مسئوليته عن نفســه وعن مجتمعه بالعدل والاحسان فى حق نفســه وحق غيره ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وبهذا يكون المسلمون خير أمة أخرجت للناس .

وبهذه الخصــائص من الواقعيـة والعقـلانيـة والحرية والاجتهـاد فى شريعـة قوامهـا الرحمة والعـدل واستقلال الارادة ، شجع النـاس فى كل الديانات والاجناس على اعتناق الإسلام والدفاع عن عقيدته ، واستحبوا خططه فى الحياة وقبلوا منهاجه فى العلوم ، اجتماعية أو علمية أو تطبيقية أو رياضية فهـذا منهج للتفكير الانسانى والعمل اليومى يحيـا به ويتطور على قواعده ...

وننتقل إلى البـاب الثانى من الكتـاب الذى يـدور حول : أصــول الفقه فى القرآن الكريم . يقول الإمام الشافعى - رضى الله عنه - «كل ما

نـزل بمسلم ففيه حكم لازم ، أو على سبيل الحق فيـه دلالـة موجـوده ، وعليـه إذا كـان فيـه بعينه حكم اتبـاعـه ، وإذا لم يكن فيـه بعينـه طلب الدلالة على سبيل الحق فيه بالاجتهاد ، والاجتهاد القياسى» .

قسم الباب إلى :-

أولا : أصول الفقه فى القرآن والسنة .

ثانيا : علوم القرآن والسنة .

ثالثا : الاجتهاد .

ومن استقـراء هـذه العناصر المكـونـة لمحتويـات البـاب ، يخلص للقارىء أمور من خصائص المنهج الإسـلامى تجتمع فيما جاء من أصول الإمام الشافعى .

- الاستقراء الدقيق للواقع والألفاظ والأساليب والنصوص وأسانيد السنة واللغة لاستنباط الدلالات والعلل والأحكام .

- التزام الواقعية فى الأخذ بدلالـة الظاهر الثابت بالسمع أو البصر أو الحس ، وما يجرى مجراها دون تعويل على الأمـور الباطنية «الغيبيات» أو المنطق اللفظى أو الاحتفال بمصدر الرأى دون دليله .

- وفاء نصـوص القرآن والسنـة ويلتحق بهما الاجماع ثم الاجتهاد أو «القياس» على الأصول ذاتها لكل ما يلزم البشر من الأحكام .

- النهى عن اتباع رأى دون دليل عليـه ، أو الأخذ بالهوى أو الظن أو أقاويل الآخرين أو التقاليـد أو الآراء الشائعة ، وإيجاب الاجتهاد على من تعين عليه ، وتشبيـه الاجتهاد بالجهـاد فى سبيل الله وثواب القـائم به وجزاء المقصر عنه .

- اشتراط اثنى عشر شرطـاً فيمن يستعمل «آلـة القيـاس» لتحقيق

الأصل والفرع والحكمة والعلة المؤثرة فى تقرير الحكم وإنزاله على الواقعة .

- ان أول الشروط هو العلم مع النزاهة الخلقية ، وأن الشروط ضوابط عامة ملزمة متشددة بحيث لا يفلت عنصر من عناصر «القضية القياسية» أو «العملية التجريبية» من التمحيص الحريص والتكرار حتى التيقن والتثبت قبل إعلان الرأى مع استمرار الاختبار مما أصبح أنموذجا للدقة فى كل تجربة .

- إن الاجتهاد قد يغيره اجتهاد جديد لدليل جديد ، وبهذا ينفتح الباب للتطور.

عزيزى القارىء :

لعلك تتوق إلى أن تستعرض الباب من أوله ، عد الشيخ مصطفى الرزاق تلميذ الشيخ محمد عبده اطروحة للسربون عن الإمام الشافعى قال : ما خلاصته فى كتابه الذى درسه آنذاك بالجامعة «تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية» .

«لأن المذاهب الفقيه اتجهت قبل الشافعى إلى جمع المسائل وترتيبها وردها إلى أدلتها التفصيلية خصوصا عندما تكون أدلتها نصوصا ، أما أهل الحديث فلكثرة اعتمادهم على النص كانوا أكثر تعرضا لذكر الدلائل من أهل الرأى وأتى الشافعى بمذهبه الجديد وكان قد درس المذهبين وتبين له ما فيهما من نقص ، فعمل على ان يتلافى هذا النقص وقد قدم الشافعى هذا النظام الاستنباطى فى «الرسالة» فأخذ ينقض بعض التعريفات من ناحية خروجها على نظام متحد فى الاستنباط ، وهذه الطريقة طريقة فلسفية بحتة ، وكان هذا الاتجاه من الشافعى هو اتجاه العقل العلمى الذى لا يعنى بالجزئيات والفروع ، وكان تفكيره تفكير من

ليس يهتم بالجزئيات والتفاريع ، بل كانت غايته ضبط الاستدلالات التفصيلية بأصول تجمعها وذلك هو النظر الفلسفي» .

والواقع أن الإمام محمد بن ادريس الشافعي «المولود سنة ١٥٠ والمتوفى سنة ٢٠٤ للهجرة» وضع نظامه أو منهجه فى حلقته بمكة بعد أن رجع من العراق سنة ١٨٤ فى أعقاب محاكمة الرشيد له لاتهامه بالتشيع .

«الشافعي فيلسوف فى أربعة أشياء : «فى اللغة ، واختلاف الناس والمعانى والفقه» . والحق أن ظهور الشافعي كان استجابة كريمة من السماء لحاجة الأمة إلى أصول تهدى إلى فهم شريعتها ، بل إلى فهم سائر العلوم لأن أصحابها أخذوا فيها بأصول الفقه .

ثم كان الفصل الثانى من هذا الباب حول علوم القرآن والسنة يقول - عليه الصلاة والسلام - «**إن لله أهلين من الناس**» .

قالوا : من هم يارسول الله؟ قال : «**أهل القرآن أهل الله وخاصته**» .

والشافعي فى الصف الأول من أهل القرآن أجرى الله على لسانه فى الكلمات الأولى من كتاب الرسالة سطوراً تسجل له استحضاره للمنهج القرآنى فى ذهنه وقلبه فجمع الله له فيها ما ورد تفاريق فى الكتاب المجيد من تنديد بعناصر الجانب السلبي المعطل للاجتهاد الفكرى ، وهى الخضوع للخرافات وعبادة الأصنام والأوهام والآراء الشائعة الفاسدة التى يتناقلها الآباء أو يأمر بها الأحبار ليخلص كتاب الرسالة كله للجانب الايجابى فى استعمال العقل ، ويمكن اجمال هذا الجانب الايجابى فى أمور : -

أولها : النص فى القرآن .

ثانيها : النص فى السنة وعلوم السنة .

ثالثها : الاجماع .

رابعها : الاجتهاد .

وبما أورده الشافعى فى الاجتهاد يتكامل المنهج العلمى فى أصول الفقه ، ومن العناية بالنصوص ومعانيها وتحرى دلالاتها ، وبالاستقراء الصحيح .

ومن شروط الشافعى فى المجتهدين وفى استعمال ما سماه آلة القياس تكوّن المنهج العالمى .

وينقلنا المؤلف إلى الباب الثالث من كتابه ، وموضوعه انتقال المنهج إلى جميع العلوم وهو يأخذ بيد القارىء خطوة خطوة ليعرف عظمة الإسلام وعلمائه ، بدأه بقول الإمام الغزالى رضى الله تعالى عنه :-

«من لم يشك لم ينظر ، ومن لم ينظر لم يبصر ، ومن لم يبصر بقى فى العمى والضلال» .

والمؤلف - دائما - مع الإمام الشافعى منهجه فى أصول الفقه ، منهج للوحدة الفكرية تضبطها قوانين عامة استطرد العلماء بها إلى العلوم التطبيقية والكونية من فلك وطبيعة وكيمياء ورياضة وطب وجغرافيا وجيولوجيا وغيرها من العلوم .

والعقلية الإسلامية بوجه عام تنطلق من القرآن والسنة ، فهما درسها الأول ، فلا تكاد تجد عالما أو متعلما فى أى قرن لم يبدأ بحفظ القرآن والسيرة ، وقد يزداد فيدرس اللغة والأدب ، فإذا رقى فى سلم العلم كانت فنون المناظرة أو علوم الكلام أو أصول الفقه أو ضروب الفلسفة أو بعض درجاته ، وإذا تخصص فى العلوم الرياضية والتجريبية أو التطبيقية كان القرآن عماده بمنهج التفكير الذى رسمه .

يقول - ﷺ - : «تناصحوا فى العلم فإن خيانة أحدكم فى علمه

أشد من خيانته فى ماله ، والله سائلكم عنه» . وكتاب الله العزيز نزل تبياناً لكل شيء على أيدى المسلمين وغير المسلمين .

والمؤلف فى هذا الصدد يختار خمسة من أئمة الدين والفقه والفلسفة وغيرهم من العلماء فى فروع العلوم الاجتماعية المختلفة لينقلنا من بعدهم إلى آخرين فى فنون العلوم التطبيقية بدأ بالإمام جعفر الصادق الإمام السادس للشيعة الامامية يليه أبو حنيفة «الإمام الأعظم» فى الفقه لأهل السنة والثالث زعيم فرقة من فرق المتكلمين «المعتزلة» هو الجاحظ والرابع وهو الغزالى أصولى فقيه متصوف .

أما الخامس فعالم فى الفلك وفيلسوف من المغرب بالأندلس مايزال الأدب العالمى يقلده . وفى مجال التجربة أو الاستقراء والقياس ، تزاوج الفكر الفلسفى والمنهج العلمى وما سماه الجاحظ منذ القرن الثانى أو الثالث «علم التجربة» أو الرياضة أو الاجتماع أو الاقتصاد أو الجغرافيا أو الجيولوجيا أو النباتات وغيرها .

وتصدر الجميع «جابر بن حيان» ١٦١هـ - ٧٧٨م» بأعماله فى الفلسفة والعلم أو الكيمياء وهو - لامراء - «إمام التجربيين» فى جميع العصور ، ولذلك تبايع له أوربا مع كثرة كتبه فى الفلسفة على أنه «أول كيميائى فى التاريخ» .

ثم الخوارزمى «٢٣٥هـ - ٨٥٠م» عرفت أوروبا الأرقام الهندية وعلم الجبر عن طريق كتبه .

ثم الكندى (١٧٥ - ٢٥٢هـ) (٨٠١ - ٨٧٨م) ويلقب بفيلسوف العرب ، وهو يعرف الفلسفة بأنها (علم الأشياء بحقائقها بقدر طاقة الإنسان» .

ومن الكندى إلى أبو بكر الرازى (٢٤٠هـ - ٣٢٠م) (٨٦٤م -

٩٢٥م) جالينوس العرب كما يسميه المؤرخون الفرنجة بلغ مبلغا عاليا فى دراساته الفلسفية ، وأكب على دراسة الكيمياء حتى انتصف عمره .

ثم المسعودى (٣٤٦هـ - ٩٥٦م) عالم فلكى وجيولوجى ، ومؤرخ وجغرافى لـه مـن الكتب «مروج الذهب ومعادن الجوهر» و(التنبيه والاشراف) .

هناك أيضا الحسن بن الهيثم (٣٤٥ - ٤٣٠هـ) تجتمع أطراف المنهج الأصولى فيما كتبه ومن ابن الهيثم الى ابن سينا (٣٧٥ - ٤٣٨هـ) برز فى بواكير شبابه فى الفقه وألف فيه ، ثم اتجه إلى الفلسفة فقرأ كتب الرازى فى الفلسفة والطب ، فصار العلمان ميدانه . له ١٠٧ مؤلفات فى العلوم والفلك والطب والفلسفة أشهرها كتاب (القانون) فى الطب .

ثم هناك أبو الريحان البيرونى (٣٥١ - ٤٤٠هـ) - (٩٦٥ - ١٠٤٨م) عالم فلكى رياضى وكيميائى وطبيعى موسوعى المعرفة ، أديب فى اللغة يرى العلم عبادة ، ويحرص على العلم بدقائق الفقه وفرائضه . أهدى إليه السلطان مسعود جمالاً محملة فضة فأعادها شاكراً وقال : «إنه يخدم العلم لا المال» .

ومن البيرونى إلى ابن البيطار (٦٤٦هـ) والمنهج الأصولى من أوضح ما تقرؤه فى استهلال ابن البيطار لكتابه (الجامع لمفردات الأدوية والأغذية) ظل هذا الكتاب مرجعا حتى العصور الحديثة .

ثم هناك التيفاشى (٦٥١هـ - ١٢٥٠م) أول جيولوجى فى التاريخ يصنف المعادن تصنيفا يتبعه العلماء الآن وتظهر فى تجاربه الملاحظات التى تعكس الواقع بنزاهة علمية والتاريخ يسجل له السبق فيما يسمى بتجربة الشعلة .

وأيضا هناك عبد اللطيف البغدادى (٥٥٧هـ - ٦٢٩م) فقيه

شافعى ، وأستاذ لغة وبيان صاحب تجارب خالدة الأثر فى الطب .

ومن العلماء أيضـــا القـــزوينى (٦٠٥ - ٦٨٢هـــ) (١٢٠٨ - ١٢٨٣م) وهـــو فقيـــه وإمـــام فى الحديث ومفسر القـــرآن ، وقـــاضى و«جغرافى» من نسل أنس بن مالك صاحب رسول الله - ﷺ - وهو بكل ثقافته مثل صدوق للمنهج العلمى فى فـروع العلم الإسلامى لذلك تقرأ نصوص القرآن فى مبادئه وتنفيذ هـا فيشير إلى قوله تعالى : ﴿**أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنينـاها وزيناها ومـالها من فروج**﴾ . وأيضا هناك ابن النفيس (٦٧٨هــ - ١٢٩٦م) فقيه شـافعى طبيب تخرج فى الأزهـر وتولى تـدريس الفقه الشـافعى ، له مكانـة فى (طبقات الشـافعية) ألف المختار فى علم الحديث والرسالة الكاملية فى السيرة النبوية .

ومن علماء العرب بالاندلس ابن رشيد (٥٢٠ - ٥٩٥هـ) (١١٢٦ - ١١٩٨م) فقيه مـالكى حجة ، مايزال كتـابه فى الفقه (بدايـة المجتهد ونهايـة المقتصد) مـرجعاً للقضـاء والفقه فى المذهب والفقـه المقارن ، لـه المؤلفات الشهيرة فى الفلسفة ، وكتب فى الطب والفلك فهو فيلسوف من طراز عالمى (إسلامى وأوروبى) .

وختم ابن خلدون (٧٣٢ - ٨٠٨هــ) - (١٣٢٢هـ - ١٤٠٦هـ) هذه الصفوة المختارة من العلماء فى كل المجالات .

ولد ابن خلـدون بتونس ، تـولى ديوان المظالم مـارس الفقه ، وضع كتابه الشهير (العبر وديوان المبتدأ والخبر فى أيام العرب والعجم والبربر) . والكتاب يتضمن ثلاثة كتب أولها ما سماه المؤرخون «مقدمة ابن خلدون» يحتـوى التفسير الاجتماعى للتـاريخ بفلسفتـه الاقتصـاديـة والاداريـة والعمرانية والزمنية والعرفية .

والكتابـان الثانى والثالـث يشتملان على أخبار العـرب حتى القرن

الثامن للهجرة بما فى ذلك دول الاسلام فى القارات الثلاثة المعروفة حتى ذلك الزمان ، ثم أخبار البربر ودولهم والتعليق على أصولهم .

ويستصحب المؤلف من الباب الثالث من كتابه :

أولا : ان جدران كلية الطب فى باريس ماتزال تزدان بصور الرازى وابن سينا وابن رشد وان أكثر من ذكرناهم فلاسفة ، وإن كانوا كيماويين أو رياضيين أو أطباء أو فقهاء ومنهم من ولى القضاء وكلهم أصوليون .

ثانيا : أن فى تطبيق المنهج مدارس ثلاث .

(أ) المدرسة المنطقية التى تجرى الاستنباط من المشاهدات أى بإستقراء ما هو كائن والاعتبار بدليله ، وهذه مدرسة المتكلمين ، تلمع فيها تجارب عملية للجاحظ ، وعلمية لابن طفيل والغزالى الذى جعل نفسه محلاً للتجربة لينتقل من الشك إلى النظر فالبصر فاليقين ، وابن رشد الذى كان سفير الحمية الفكرية إلى العالم الأوربى .

(ب) مدرسة التجريبيين فى الطبيعة الذين يستعملون للاستقراء ملاحظة طبائع الأشياء وخصائصها وتحليلها وتحقيقها واستنباط قوانينها ومبادئها .

وأستاذ هذه المدرسة جابر وتلاميذه الرازى وابن سينا وابن النفيس والبغدادى والتيفاشى والمسعودى وابن خلدون وكثيرون .

(جـ) مدرسة التجريبيين الرياضيين الذين يستعملون المراصد والأجهزة والأدلة الحسابية والهندسية ، وقد يخترعون أدوات التجارب لدراسة الطبيعة والفلك ، ومن أساطينها الكندى والخوارزمى وابن الهيثم والبيرونى والقزوينى .

والمدارس الثلاث تجمعها التجربة وتفرق بينها أدواتها أو موضوعاتها

أو أغـراضهـا ، وهذه أيضـا هى المدارس التى سيبلغ بها عصر النهضـة شأوه ولكن على أيدى غير عربية .

وبدأ الباب الرابع بشرح واف عن كيفية انتقال المنهج الإسلامى إلى أوروبا . والمؤلـف بأسلوبـه الرشيق يقـول : وربما كشفت فى كتابنـا هذا فقرات فى بيـان الطريق إلى ذلك ... ويبدأ بالأنـدلس ، والأندلس إسم معرب لكلمـة «اندالـوشيا» وبها تسمى قبـائل فندالس VANDALES الذين اجتـاحوا فـرنسا واسبـانيا ثم هبطـوا إلى إفريقيـة فى زحف القبائل الجرمـانيـة فى القرن الخامس للميـلاد . وكما جمّل العـرب اسم الاقليم اذ عربوه أبدعت العبقرية الإسلاميـة فى تزيينه بالحضارة التى حملتها القبائل العربيـة ، إذ جاءت بعد الفتح تتفيأ ظـلاله وتنشر من موقعـه البديع فى أوروبا أضواء الإسـلام وعقيدته وفنونه وعلومـه ، حتى انفردت الأندلس بنشر العلم والتمكين للاسلام به فى أوروبا ، فكانت تستقدم الكتب من الشرق ، وتتعالى مآذنها فى المسـاجد وتتعدد وتتنوع حلق العلـم حول أثر أساطينها حتى صارت العلاقة العلميـة تزداد وثاقة أو منافسة بين المشرق العربى والمغرب العربى كلما تقدم العلم .

ومن الأندلس صقلية :

صقليـة وجـزر البحر الأبيض ، فقـد أصبحت بحيرة قليـة وجـزر البحر الأبيض بحيرة إسلامية بـدأت سيطرة العرب عليها منذ انتصروا فى واقعـة ذات الصوارى سنـة ٣٨ للهجـرة ... وحملت هـذه الامارة شعـار الحضارة التى تنتقل من الجنوب إلى قلب أوروبا طوال حكم العرب لها : يقول المستشرق «جـوستاف لـوبون» : «إن بعض المدن الاسبـانية لاسيما اشبيلية ماتزال بيوتها تبنى على طراز إسلامى ، ولا تزال زخارفها والرقص والموسيقى فيها على الطريقة العربية ويشاهد الدم الشرقى فيها بسهولة» .

والشواهد على الواقع العـربى تتردد على اللسان فى كثير من اللغات ، وما هى إلا أدلة على حضارة متغلغلـة فى ضمير العالم المعروف ودوله ، لا يحجبها تغـافل العارف ، فلم تبعث أوروبـا من موت ، وإنما صحت من سبات .

لقـد كـان المسلمـون ينشرون العلم فى غير المسلمين المقيمين بين أظهرهم أو الوافدين على بلدانهم متمتعين بالحماية التى يحمى بها الاسلام (أهل الذمة) فالرسول ﷺ - يقول - :

«من آذى ذمياً فأنا خصمه» والمسلمون يعترفون بالديانات السماوية ويحترمـون علماءها كإحترام العلماء المسلمين في حين لا يعترف أصحـاب الديانات الأخرى بالإسلام .

ويفـرد المؤلف فصـلا عـن المنهج الجديـد «الفـرنسيس بيكـون» والمنـاقشات التي دارت حـوله وخـاصة مـاسجله الاستـاذ العقاد حـول شخصية «بيكون» وكليات «المنهج الجديد» .

وأيضـاً رأى الشاعـر محمد اقبـال في كتـابه : «إعـادة تكون الفكـر الـديني في الإسلام» ثم يسجل المؤلف أيضـاً معالم الـدراسة التي قـام بها الدكتور محمد موسى للبحث في العلوم الطبيعية والكونية فصلت بحوثها تجارب جـابر ابن حيـان وابن الهيثم والرازي وابن سينـا والبيروني وبينت أثرها العالمي وأبرزت اعتماد بعضها على اصـول الفقه ، وتصدت الدراسة لتجارب «فرنسيس بيكون» لتقدير قيمتها في بلوغ النتائج ولخصت أصول منهجه فيما يلي :

١ - وجوب اتخاذ طريقة الاستقراء أساسا للتجارب العلمية .

٢ - نبذ ما يعرقل البحث العلمي من :

● تغليب العاطفة .

● تأثر الباحث بمركزه العائلي أو الإجتماعي أو الاقتصادي أو ميله الشخصي ويعبر عن هذه المؤثرات بالأصنام الأربعة، (أوهام الجنس أو القبيلة والكهف والسوق المسرح).

● عدم الخلط بين الكلمات والألفاظ التي هي واسطة نقل المعاني.

● عدم التشبث بنظريات لا تقوم على أسس منطقية تأذن لها بالاستمرار.

٣- إن كل واقعة لها (صورة) تعينها، ويمكن رد الواقعة إلى صور متعددة.

٤- إجراء التجارب لمعرفة العلة (الحقيقة).

وحسبنا ما اورده المؤلف من ملاحظات في تقدير المنهج الجديد لبيكون وهي:

● القدح الجزاف أو الاغفال العمد لتجارب يعرفها لإثنن من معاصريه.

● عدم المعرفة بالقدر الضروري من العلم بما يحدث من الكشوف العلمية في عصره أو في القرن الذي ولد فيه، أو في قرون عشرة نقلت العالم من عصور الظلمات إلى عصر الأحياء وعصر النهضة.

التعصب الديني وقد ورثه من أبويه، وتغلغل فيه من بيئته والتزامه افكارا غير متعمقة، واكتفائه بالقليل الذي يسمعه عن الكثير الذي يجب أن يتعلمه أو اعتناقه أفكارا غير صحيحة.

● الاستقراء المعيب بالمجازفة أو الجهل أو الهوى فيما نسبه إلي العلم عند العرب بعبارات مرسلة لا سند لها الا التعصب.

ولعل مايؤكد الملاحظات السابقة تلك الدراسات التي قام بها جمع

من المستشرقين بعد «بيكون».

● فهذا جوستاف في كتابه «تاريخ العرب» يقول: (إن العرب ادركوا بعد لأى أن التجربة والمشاهدة خير من أفضل الكتب، ولذلك سبقوا أوروبا إلى هذه الحقيقة التي تغري إلى «بيكون (فرنسيس)» أنه أول من أقام التجربة والاختبار اللذين هما ركن المناهج العلمية الحديثة فالمسلمون أسبق إلى نظام التجربة في العلوم)

ولا تنسى المستشرقة الألمانية (سيجريد هونكة) في الأعوام الأخيرة إذ تنعى تعصب المتعصبين فتقول:

«إن أوروبا تدين للعرب وللحضارة العربية.. وكان يجب على أوروبا أن تعترف بهذا الصنيع من زمن بعيد، ولكن التعصب واختلاف العقائد أعمى عيوننا حتى أننا نقرأ ثمانية وتسعين كتاباً من مائة فلانجد إشارة للعرب»

وتقول عن دور العلوم العربية «إنها سبة أن يعلم أهل العلم من الأوروبيين أن العرب أصحاب نهضة علمية لم تعرفها الانسانية من قبل، وأن هذه النهضة فاقت كثيراً مما تركه اليونان والرومان ولا يقررون أن العرب ظلوا ثمانية قرون طوالا يشعون على العالم علماً وفناً وأدباً وحضارة، كما أخذوا بيد أوروبا فأخرجوها من الظلمات إلى النور، ونشروا ألوان المدنية أينما ذهبوا ثم تنكر أوروبا على العرب هذا الفضل».

ودراسات المستشرقين هذه تظهرنا على أن يكون (بيكون) كان قليل المعرفة بتاريخ التجربة التي كان يبشر قومه بعصرها المقبل، وأنه يستقرىء أهم حقب التاريخ من زاوية منحرفة.

وليس غلواً مايقوله بعض: إن ما تحقق (للمنهج الجديد) من اشتهار قد صنعته مكانة انجلترا السياسية وكشوف رحالها، وإن لم

يعتمدوا على «المنهج الجديد»

وقد يصلح بال بعض ان نختتم هذا الباب بتأكيد المستشرق البريطاني (الفريد جيوم) رئيس كلية كلهام بانجلترا في هذا القرن عن احساس تاريخي أو ادراك حدسي أو خفي حين اختتم بحثه في كتاب تراث الاسلام فقال : (ومن العسير، ان لم يكن من المستحيل أن نميز ثقافة قوم تسربت إلى ثقافات أخرى ، وتغلغلت في ميادينها كما يصعب تمييز الماء العذب إذا إنصب في الملح الأجاج وسوف نرى عندما تخرج الكتب المودعة في دور الكتب الأوروبية أن تأثير العرب الخالد في حضارة العصور الوسطى ، كان أجل شأناً ، وأجل خطراً مما عرفناه حتى الآن .

ولعل ما أورد المؤلف من حقائق وملاحظات خاصة ملاحظات المستشرقين الذين جاءوا بعد (بيكون) يصحح بعض أخطاء صاحب (المنهج الجديد) كما يظهر بجلاء أنه ليس بجديد، بل هو بعض من كل سبق به القرآن الكريم دستور الأمة الاسلامية في كل زمان ومكان ، وعمل به العلماء العرب في كل فنون العلم ، وأيضاً ، فهذه الحقائق وتلك الملاحظات هي عناصر خطاب موجه للحاضر والمستقبل معاً بإقتدار المنهج القرآني على إبلاغ الفكر الإنساني أعلى مبالغة .

ولقد آن للمسلمين الذين يتوثبون للتقدم ويتشوقون إلى العلم أن يدركوا أن عندهم مفاتحه ، وإنهم إذ يعملون به يستردون تقدمهم ولا يستوردونه .

ومن الباب الرابع إلى الخامس الذى يدور حول :- (المنهج فى الفقه والمعاملات) .

قدم بعبارة جامعة مانعة يقول ابن تيمية : (كل ما احتاج إليه الناس فى معايشهم ولم يكن سببه معصية ، هى ترك واجب أو فعل

محرم، لم يحرم عليهم).

عزيزى القارىء :

تناهت أعمال الفقهاء على مدى التاريخ الإسلامى إلى أبعد حدود الجهود الإنسانية فقدمت للدنيا فكراً تشريعياً لا يمكن أن يضارعه كما أو كيفاً أى فقه مهما تقدم أو تأخر وقدمت الحضارة الإسلامية للتاريخ أئمة فى الفكر القانونى أثبتت القرون عجزها على أن تلد نظراء لهم وعلى أيديهم وأيدى كثيرين من تلاميذهم هم أو مخالفيهم بلغ الفقه الإسلامى مبلغ الكمال كما يقول واحد من كبار التلاميذ فى مدارسهم (الفيلسوف أبو الوليد بن رشد) فى القرن السادس الهجرى :- هذه صناعة الفقه ، والفقه نفسه ، لم (يكمل النظر فيها) إلا فى زمن طويل ، ولو رام إنسان اليوم من تلقاء نفسه أن يقف على جميع الحجج التى استنبطها النظار فى أهل المذاهب لكان أهلاً أن يضحك منه) .

ويقول ابن الصلاح فى القرن السابع : «لقد تمت الشريعة وعلومها وخاض فى بحر الحقائق والدقائق علماؤها حيث لا منطق ولا فلسفة ولا فلاسفة» .

ويقول ابن خلدون فى القرن التاسع : (ان العلوم الشرعية النقلية قد نفقت أسواقها فى هذه الملة «بما لا مزيد عليه» وانتهت فيها مدارك الناظرين إلى الغاية التى لا شىء بعدها) .

والشريعة على ما يقول ابن قيم الجوزية : «مبناها وأساسها على الحكم ومصالح العباد فى المعاش والمعاد ، وهى عدل كلها ورحمة كلها ، وكل مسألة خرجت من العدل إلى الجور ومن الرحمة الى ضدها ومن المصلحة إلى المفسدة ومن الحكمة إلى العبث فليست من الشريعة» وقليل

من التأمل يطرح أمام بصائرنا كليات تهدى إلى فهم الطريقة المثلى فى إتباع أصول الفقه وتحقق أغراض الشريعة .

من خصائص الشريعة :

أولا : الواقعية :

أى الاحتفال بما هو كائن ثابت صلاحه وإصلاح ما يتعين إصلاحه .

ثانيا : الحرية :

وهى مظهر سمو الإسلام بإنسانية الإنسان إذ لا يضعه فى موضع الخطيئة أو نتائجها فيزرى به إلا أن يخطىء بالفعل قال تعالى : ﴿**لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم ، ثم رددناه أسفل سافلين ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون ، فما يكذبك بعد بالدين ، أليس الله بأحكم الحاكمين**﴾ . (سورة التين ٤ – ٨)

فهو تعالى يمنحنا الكرامة والسلطة والحرية فى مقابل المسؤولية وما أوسع الحريات فى الإسلام .

ثالثا : الرحمة :

وهى شعار الإسلام يقول الحق تبارك وتعالى لرسوله : ﴿**وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين**﴾ ويقول الرسول – صلوات الله وسلامه عليه– : (**إنما أراد الله بهذه الأمة اليسر ولم يرد العسر**) .

(**خذوا من العمل ما تطيقون**) .

(**إن الله يحب أن تؤتى رخصه كما يحب أن تؤتى عزائمه**) .

رابعا: حق العبد وحق الله :

ويتميز التشريع الإسـلامى بما يجعله منهـاج حياة كاملـة لا منهاج تفكير مجرد ، وبهذا يحتفظ للقيم العـاليـة لا منهـاج تفكير مجرد ، وبهذا يحتفظ للقيم العالية بـالتطبيق اليومى الجماعى والفردى وهذا مـا يلاحظه الشاطبى من أن كل حكم شرعى لا يخلوا من حق الله فعبادته امتثال أمره واجتناب معاصيه وما يقال : أنه حق خالص للعبد .

ليس كـذلك ، وإن كان حق غـالبـاً مراعـاة لـلأحكام الـدنيويـة والحقان متلازمان .

خامسا : الاقتدار على التطور :

اتسعت دائرة الفقـه ومصادره بتعـدد المدارس وتنـوع الآراء وحريـة الاجتهاد والاختـلاف وكان اقتداره على التطور مع تطـور الحياة معلماً من معالمه يؤكد حيويته وشموله ... وحسبنا بعض أمثال .

- اختيار ولى الأمر أو الامامة .
- السياسة الشرعية المجتمع .
- الأسرة (خاصة الطلاق) .
- الحدود .
- الادارة .
- القضاء .
- المسئولية المدنية .

ومن خصائص الشريعة إلى مدارس الفقه : فقد حكمت الكليات التى أسلفناهـا عمل الفقهاء والقضاء كـافة ، وتناتجت من أصـول الفقه طرائق عملت بها المذاهب الأربعـة لأهل السنة ، واتسم كل منهـا بطابع خاص فى العمل بـالأصول لكنهـا كلها مـذاهب فى الاجتهاد عنـد عدم

وجـود النص ، والنظرة الفـاحصة إليهـا تكفى لبيان التـزامها فى عملهـا بالمنهج لبلوغ أغراض الشارع .

- مدرسة المدينة أو الفقه العملى .
- مدرسة الكوفة أو مدرسة الرأى .
- مدرسة مكة .
- مدرسة أحمد بن حنبل .
- مدرسة المحدثين .

وكان المنهـج فى المعاملات هـو الفصل الثانى البـاب الخامس من أبواب الكتاب .

التزم المسلمـون فى حياتهم الاجتماعيـة والاقتصاديـة معانـى القرآن وخصائص شريعته ، فقامت المعـاملات على التراضى الكامل وسلمت من عيـوب الرضـا ، ومن الحرام والربـا والقهر والمقـامرة والغـرر وطورت الحاجـات العملية الفقـه وطـورها فتجـاريـا فى رفع مستوى التعـامل ، وشارك الفقهـاء (بالعمل) والتطبيق فـوجدنا العمال الفقهـاء ، والفقهاء العاملين بأنفسهم أو بـأموالهم ونتجت من ذلك حياة اقتصـادية جـديرة بالمسلمين ، إذا نظرت إليها من خلال القرون برزت لك قواعد ثلاث :

القاعدة الأولى : مردها إلى واجب العمل .

القاعدة الثانية : مردها إلى الغريـزة الإنسانية وهى (ان الملك واحد من الحريات الطبيعية) .

القاعـدة الثالثـة : مـردها إلى حـاجـة الإنسان إلى مجتمعـه للهوهى تضامن الجماعة ... وفى ذلك يقـول الحق تبارك وتعالى :- ﴿إنما المؤمنون اخوة﴾ .

ويقـول الـرسـول الأعظـم - صلوات الله وسـلامـه عليـه - (المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا) .

وهكـذا فجماع أمر الادارة الإسـلاميـة ماليـة كـانت أو سياسيـة أو اجتماعـة قد عبر عنـه طـاهـر بن الحسين فى وصيـة لإبنه عبـد الله إذ ولى خراسـان فى عهد المأمون فقـال : «وليكن كنز خزائنك تفـريق الأموال فى عمارة الإسلام وأهله» .

عزيزي القارىء :

ردد معى قـول الإمام على - رضى الله تعـالى عنه - (إن أفضل قـرة عين الولاة استفاضة العدل فى البلاد بظهوره فى مودة الرعية) .

بهذه الكلمات المضيئـة صدّر المؤلف البـاب السـادس والأخير من كتابه الذى يدور حول المنهج فى القضاء .

والقضـاء فى الأمة - كـالعدسـة المكبرة لما وراءهـا ، ولذلك يقـول المعـاصرون : - «انظـر كيف تصـدر الأحكـام فى أمـة تعـرف مقـدار حضارتها» والعدل أسـاس فى العقيدة الإسلامية إذ هـو صفة من صفات الخالق سبحـانـه وتعـالى فشريعته شريعـة العـدل الكـامل ، وعلى هـذا الأسـاس قضى رسـول الله - ﷺ - وقضـى صحبـه وقـال المسلمـون : «القضاء تلو النبوة» .

والتـاريخ يحاكم «الأحكام» كما يحاكم الحكـام ، فيشهد للقـاضى وللقاعـدة القانونية التى يطبقهـا أو يشهد ضدهـا ، والتاريخ ينطق على لسان المسلمين حين يصفون العدل فى أعلى درجاته فيقول : عدل عمر .

لهذا عـرض المؤلف جوانب من عهـد سيدنـا عمر رضى الله تعـالى عنه- فى القضـاء وأيضا تبعـه بعهد أمير المؤمنين سيـدنا على - رضى الله

تعالى عنـه - ليعرف القـارىء كيف طبقت شريعة الإسـلام شريعة الحق تبارك وتعالى .

عزيزى القارىء :

وأنا أقف معك على آخر عتبات هـذا الصرح الفكرى فإننى أدعوك أن تقرأ هذا الكتـاب مرة بل مرات لتعرف مـدى قيمة العمل المخلص فى سبيل الإسلام ، بل الجهد الذى لا يقدر عليه إلا عالم أُهِّل لهذا النوع من الـدراسة الـواعيـة الهادفـة التى تضع النقـاط فوق الحروف ... وليعـرف شباب اليـوم والغد إنما هى أضغاث أحلام أن يستسلم لما يسمى بـالغزو الفكرى للأمة الإسلاميـة ... فالقرآن الكريم كتاب الله الجامع ، ومنهج الإسلام والمسلمين فى مشـارق الأرض ومغاربها ﴿**لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد**﴾ ... صدق الله العظيم .



المجتمع الإسلامى كما تنظمه سورة النساء

عزيزى القارىء :

ليس أفضل من وقت تقضيه مع مبحث من مباحث كتاب الله الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ، ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد

لم تترك كلمات الحق تبارك وتعالى شيئا أو أمراً أصغر أو أكبر من أمور ديننا ودنيانا إلا وحددت معالمه تحديداً يعجز البشر عنه جميعا إلى قيام الساعة ، فعلم الله أكبر وذاته أعظم وقدرته فوق كلُ القدرات ، فهو الخالق البارىء المصور له الأسماء الحسنى .

«تفكروا فى خلق الله ، ولا تفكروا فى ذاته فتهلكوا» .

(صدق رسول الله)

مع نفحة من نفحات الرحمن مع : «المجتمع الإسلامى كما تصور سورة النساء» كتاب شيق لعالم إسلامى جليل هو المرحوم الشيخ/ محمد محمد المدنى طيب الله ثراه دعنا أولا نوجز ما جاء بين دفتى الكتاب قبل ان نعرض مباحثه :

سورة النساء هى السورة الرابعة فى ترتيب المصحف ، أما فى ترتيب النزول فأصح ما ذكر أنها سادسة السور التى نزلت بالمدينة المنورة ، وقد انعقد الاجماع على هذا الترتيب العثمانى المتلقى عن رسول الله – صلوات

الله وسلام عليه - ولكن هذا لا يمنع الباحثين من أن يسترشدوا بتاريخ النزول وأسبابه توصلاً إلى ما يفيد الحقيقة فى مختلف بحوثهم فإن فى معرفة هذا علماً كثيراً ، وفوائد جمة ، وعلى هذا فلابد من معرفة البيئة المعنوية التى نزلت فيها السورة الكريمة حتى ندرك الرابطة بين موضوعاتها وموضوعات البيئة التى نزلت فيها . وقد سميت السورة بسورة النساء وقد يطلق عليها «سورة النساء الكبرى» أو «سورة النساء الطوالى» تمييزا لها عن سورة أخرى من سور القرآن الكريم هى سورة «الطلاق» إنها تسمى أيضا «سورة النساء الصغرى» وهذه السورة الكريمة مدنية تتجلى فيها كل الخصائص التى اختصت بها السورة المدنية ، وقد اهتمت كثيرا بما يتعلق بتنظيم جماعة المسلمين داخل بلادهم ، وفى علاقتهم الاجتماعية بعضهم مع بعض ، وفى وضع أسس الحكم الصالح الذى يجب أن تقوم عليه دولتهم ، وفن وجوب الحذر من الذين يريدون أن يزلزلوا عليهم هذه الدولة أما عن طريق تشكيكهم فى مبادىء الدين ومثله وتشريعاته ، وإما عن طريق القوة المادية وإثارة الحرب بنوعيها اللذين عرفناهما فى زماننا الحاضر بالحرب الحامية ، والحرب الباردة .

وتبدأ السورة بتقرير المبدأ الأول الذى يجب أن تقوم عليه المجتمعات أياً كانت ، وهو أن الناس جميعا متساوون فى الخلق من نفس واحدة خلقها الله تعالى ، وبعد أن صورت السورة هذا المبدأ الأول ، أخذت تتحدث عن العناصر واللبنات المكونة لبناء المجتمع ، وبدأت فى ذلك بأضعف هذه العناصر وأحوج هذه اللبنات إلى الرعاية والتقوية وهم اليتامى والسفهاء والنساء .

بعد ذلك اهتمت السورة بتشريع واضح مفصل فى شأن هام من شئون المجتمع وهو نظام المواريث ، وعرضت السورة بعد ذلك لجريمتين من الجرائم الخلقية من شأنهما أن تفسدا المجتمع إفساداً شديداً وذلك فى

قوله تعالى : ﴿واللاتى يأتين الفاحشة من نسائكم﴾ وهذه ناحية والناحية الثانية هى «التوبة» .

بعد ذلك عرضت السورة لبعض أحكام الأسرة ، ونظمت بعض العلائق بين الأزواج والزوجات .

وفى ربع كامل عرضت السورة بعد ذلك إلى الأسس التى أقامت عليها أول مجتمع إسلامى تحت ظلال الدولة الإسلامية فوضعت له أسس الايمان والخلق والتعاون الجماعى ، حظرته من مفسدات الأمم ما يطيح بها ثم وصفت السورة أساس الحكم الإسلامى فبينت ان ذلك يقوم على أمرين عظيمين هما أداء الأمانات إلى أهلها والعدل بين الناس .

ثم بدأت السورة بعد ذلك تتجه إلى جانب المحافظة على هذا المجتمع الإسلامى وتحذيره من كيد أعدائه المتربصين به .

ثم عرضت السورة للشرك وأوهام المشركين ، واضلال الشيطان لهم وعاقبتهم من الخسران المبين ، وعذاب الجحيم ، ووازنت فى هذا الجزاء وتلك العاقبة بينهم وبين المؤمنين الذين يعملون الصالحات ، ثم تحدثت عن تقوى الله وأنها من الوصايا التى أجمعت عليها جميع الكتب وأنها مما يقضى به المنطق وفهم الأمر على وجهه الصحيح .

بعد هذا أخذت السورة فى حديث عن أهل الكتاب «اليهود» فذكرت حمقهم فى مطالبتهم محمداً - ﷺ - أن ينزل عليهم كتاباً من السماء وان لهم فى هذا الحق ماضياً ، ثم جاءت السورة بعد ذلك بحديث عن الوحى والرسالة فبينت أن رسالة محمد ليست أول الرسالات ، كما بينت أن الحكمة من إرسال الرسل هى إقامة الحجة على الناس وان الكفر بالرسالات والاعراض عنها لابد أن يوصل الناس إلى جهنم ، ثم ختمت السورة بآية فى شأن الميراث أفردتها عن الموضع الذى ذكرت فيه أحكام

المواريث لحكمة مقصـودة . . هذا عرض إجمالى لما تضمنته سـورة النساء من الأحكام والمبـادىء والوصايـا وكلها ذات صلـة وثيقة بشأن المجتمع ووضع الأسس التى يجب أن يقوم عليها .

(المبادىء والتوجيهات التى أقامت عليها السورة نظام المجتمع)

١- المساواة بين الناس :

مما هو ثابت فى تاريخ الأمم والشعوب أن الملوك وأصحاب السلطة قد قسمـوا العالم إلى طبقات ، وقـد استمر هذا النظـام الطبقى فى أوروبا وكانت فـرنسا قبل ثـورتها مظهراً من أشنع مظـاهره ففيهـا طائفـة النبلاء وطـائفة الأجـراء ، أضف إلى ذلك نظرة الأوربيين إلى غير الأوربيين فقـد كـانت ، وما زالت إلى اليـوم نظرة ازدراء وتعصب ، وكـان من آثار هـذا المبدأ أن كـانوا يحاربون الشرق بـأسلحة وثنية لا يحاربـون بها فى الغرب ، وفى جانب آخر من جوانب هذه الطبقة أو هذه العصبية نرى موقف هذه المرئيـات والحضارات المخـالفة لـلإسـلام من المرأة يصور لـوناً من ألـوان الظلم والاساءة من الإنسان إلى أخيـه الإنسان ، ويحدثنا التاريخ أن المرأة كـانت تلاقى مـن العنت وألوان الشقـاء حتى فى المجتمعـات المتمدينـة والبلاد المتحضرة ما لا يلاقى الرجل بعضه .

هذا بلا شك مبدأ مناف للطبيعة مخالف لمقتضى أصل الخلق ولهذا كـان الإسلام طبيعيـا فطريـا حين قـرر مبدأ المسـاواة بين الناس واهـدار الجنس ، وإلغاء الطبقات وعدم الاعتراف بالتفـرقة الظالمة بين «الذكورة» و«الأنوثة» فى معنى الانسانية المشترك .

وفـاتحة سورة النسـاء تقرر المبـدأ الأول الـذى لابد من قيـام مجتمع

صالح على أساسه ، وهو مبدأ المساواة أمام الله ، وفى هذا :-

- إلغاء الفوارق الطبقية .
- إلغاء الفوارق الدينية العنصرية .
- إلغاء التفاوت فى الوزن الاجتماعى بين الرجل والمرأة .
- غرس للوازع النفسى فى المجتمع .
- إحياء لعاطفة الرحمة .

ولا ينبغى أن يفهم من هذا أن المرأة والرجل قد أصبحا بهذا مستويين حتى فيما تفرض الطبيعة اختلافهما . وإنما الفطرة أكسبت كلا من الجنسين أوضاعاً خاصة .

٢- الإيمان بالله وحده :

الحق تبارك وتعالى إله معبود ، ومشرع رحيم عليم حكيم ، والقرآن الكريم يتحدث عن وحدانية الله كمبدأ يجب أن يستقر فى المجتمع عملاً بعد أن قامت عليه الأدلة حجة ونظرا ، فالذى يضع الحدود هو الله تعالى ، والذى يجب له الطاعة هو الله تعالى الذى وضع هذه الحدود ، ورسوله الذى بلغ عنه ، والناس إما طائع ملتزم لهذه الحدود فله الجنة والفوز العظيم ، وإما عاص متحد هذه الحدود فله النار والعذاب المهين ، وقد حذر الله سبحانه وتعالى من مشاقة الرسول -ﷺ- ومباينته واتباع غير سبيل المؤمنين . . وسورة النساء تثبت صفات الله تعالى التى تغرس الهيبة والمحبة والرضا فى نفوس المؤمنين ، والقرآن الكريم لا يحشد المبادىء والتشريعات حشداً ، ولا يعنى بأن يجمعها فى نطاق واحد ولا بأن يضم الشبيه منها إلى شبيهه والموضوع فى بعض تفاصيله إلى بعض ولكنه يراوح ويغادى بالموعظة حينا والقصة حينا ويذكر طرفا من الشىء ثم يتركه ثم

يعود إلى اتمامه ، وهكذا حتى لا تسأم النفوس هديه ولا تستثقل حديثه ، وكان هذا سراً من أسرار إعجازه .

٣- العدل فى الحكم والقضاء والشهادة :

العـدل من أهم الأركان التى يقـوم عليهـا المجتمع الصالح ، وقـد عنيت سـورة النساء كما عنى القـرآن الكريم فى كثير من السـور بأن يقيم المجتمع الإسلامى على أسـاس العدل القويم الذى لا يعـرفه الالتواء ولا يتأثر بـالأهواء ، وقـد جاءت جميع تعـاليم الإسلام متمشيـة مع العدل ، فكل مـا شرعـه الله تعـالى من أحكـام المعـامـلات ، وقـواعـد السلـوك الاجتماعى ، وتفصيل العـلاقـة بين المؤمنين بعضهم وبعض ، كل ذلك قـام على العـدل ، ورمى إلى تحقيقـه ، وسـورة النسـاء أسهمت بنصيب واضح فى تقـريـر مبدأ العـدل فى الحكم ، وفى القضـاء والشهـادة وكل المبادىء والأحكام التى أتت بها يمكن إرجاعهـا إلى مبدأ العدل ، وسورة النساء تنهى عن مـلاحظة عوامل التعصب للنفس أو التحيز للقـرابة مما يبعث على تلوين العـدل بغير لونـه وإعطاء المشهود لـه ما لا يستحق ، وذلك هـو الإخـلال بالعـدل عن طـريق محابـاة النفس أو من تميل إليـه النفس .

٤- التضامن الإجتماعى العام :

فى سورة النسـاء يأمر الله جل جـلاله عباده ان يقيمـوا مجتمعه على أساسين :

الأول : عبادته وحده لا شريك له فى التوجه والدعاء لا فى التشريع بالتحليل أو التحريم .

الثانى : أن يكونوا متضامنين متكافلين .

وقد أجملت الآيـات ما أمرت به فى شأن هـذا التضامن والتراحم فى كلمة جـامعة شـاملة هى كلمـة الاحسان فقـالت ﴿وبالوالدين إحسانا وبذى القربى واليتامى﴾ والاحسان مرتبة فوق العدل وقد حذرت السورة المجتمع من مظاهـر الأرستقراطية ، وهى الاختيال والفخـر والتعالى على الناس ، وفى القرآن الكريم ثناء على الجود والايثار يقابل هذا الذم للشح والأثرة ، وتـذكر الآيـات صنف آخر من المختـالين وهم اللذيـن ينفقون أموالهم رئاء الناس ، ولا يؤمنون بالله ولا بـاليوم الآخر وعلى هذا الأساس ، وهذا المبدأ الذى هو التضـامن والتكافل بين الفرد وشركائه فى المجتمع أمـر المؤمنين بـالقتـال فى سبيل الله والمستضعفين مـن الـرجـال والنسـاء والولدان .

وجاءت آيـات فى السورة تبين مشروعيـة القتال وأهـدافه وتقـرر أن طاعة الرسول - ﷺ - من طاعة الله لأن الرسول فى الحقيقة لا يأتى بشىء من عنده ، وإنما هو مبلغ عن الله سبحانـه وقررت الآيات مبدأ الهجرة إذا كـانت سبيـلا إلى العـزة والتخلص من الاستضعـاف والظلم مع القـدرة عليها .

٥- الآيات المحذرة :

كان للمجتمع الإسلامى بالمدينة اتصال بأنواع من المنافقين ، كانوا يختلفون فى أسـاليب حربهم للمؤمنين واقلاقهم ، وان اتفقـوا فى الغرض وهو القضـاء على الإسلام . . فكان بـالمدينة جماعـة يتظاهرون بـالإسلام ويبطنـون الكفر ، وكـان بها اليهـود وناهيـك بهم وبتاريخهم فى الافسـاد والدس. تحدثت سورة النسـاء عن كل هذه الأنواع ، وبينت للمسلمين

حقيقـة كل نـوع ، وأرشـدتهم إلى مـا يجب عليهم أن يسلكـوه معهم من الحذر والاعـراض والتجنب فتحــدثت عن المخـذلين والحرب بـــالشبـه والأضـــاليل وتـزلـزل أهل النفاق ، وبـواعث النفـاق ، وأكـدت أن من مظاهر النفاق الاستهزاء بالدين وأوجبت مقاطعة المستهزئين بآيات الله ، وقررت أن من صفات المنافقين الانتهازية والمخادعة والمراءاة وكما تحدثت سورة النساء عن هذا النوع من المنـافقين بالمدينة تحدثت عن نوع آخر هم المنافقـون من اليهود ، وان النبى - ﷺ - وأصحابـه لاقوا منهم كثيراً من العنت ، وطاولوهم كثيراً لعلهم يفيئون إلى مـا هو أجدر بهم كأهل كتاب سماوى من مؤازرة النبى وتقبل دعوة الإسلام . ولكنهم مـا كانوا يزدادون إلا غـرورا وعصيـانـا حتى حكم الله بحكمـــه فيهم فأجلـوا عن المدينـة صــاغـرين . والتـاريخ يـدلنا على تمرد هـؤلاء وألـوان نفـاقهم وعتـوهم ومحاربتهم للـدعـوة الإسلاميـة وارجـافهم عليها وعلى رسـول الله بألـوان باطلهم وقد جاهد المسلمون هذا العدو المداخل لهم المتغلغل فى أعماقهم وما كان القرآن يقابل به تـرهاتهم ، وشبههم ويفضح به نواياهم السيئة ، ولـولا أن الله تعالى أيـد رسولـه بنصره ، وحمى دعـوة الحق بفضله ورحمتـه لكان من الجائز أن يتغير وجه التاريخ عما هو عليه الآن لكن الله سبحانه وتعالى يقول فى كتابه العزيز :

﴿يريدون أن يطفئوا نـور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون﴾ . (سورة التوبة ٣٢)

٦- الآيات الموجهة :

وتشترك هذه الآيات كلها فى أن لها رسالة فى المجتمع واحدة وفى أن لها أسلوبـاً معيناً من شأنه أن يـؤثر تأثيراً قوياً متجـددا منطبقا على آلاف الحالات فى كل مجتمع ، فأما الـرسالة الـواحدة المشتركة بين هـذه الآيات

فهى وضع دوائر ومناهج كلية يرجع إليها الناس فى أهم النواحى التى يدور حولها نشاط المجتمع ، وان شئت فقل إن هذه الآيات بمثابة منارات تنبعث منها أضواء كاشفة متجددة متحركة تهدى كل من توجه إليها ، وأما أسلوبها الواحد المعين فهو أنها أخرجت كلها مخرج الأمثال التى تعتمد على اللفظ الوجيز والمعنى الوسيع والصلاحية للانطباق على كثير من السور .

هذه الآيات قد تجاوزت الستين آية وتتناول كل المبادىء والتوجيهات التى تحدثنا عنها من قبل .

٧- الآيات المبشرة :

تعد رسالة الإسلام فى بناء المجتمع رسالة رحمة وتبشير وتخفيف وتيسير لا رسالة قوة ولا تشديد ولا تحجير ولا تزمت وفى سورة النساء نجد آيات تصور أهداف التشريع الإسلامى للمجتمع تصويراً واضحاً رائعاً مثل قوله سبحانه وتعالى :

﴿يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم والله عليم حكيم والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلاً عظيماً يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفاً﴾ (سورة النساء ٢٦ – ٢٨)

﴿والله يدعوا إلى دار السلام ويهدى من يشاء إلى صراط مستقيم﴾ (سورة يونس ٢٥)

يتجلى من هذا أن القرآن الكريم يريد للمجتمع أن يكون متمسكاً بأهداف الأمل دائماً لا ييأس من روح الله .

والآيات المبشرات ، فهى تفتح سبعة أبواب للرجاء :–

١ - الاعتراف بالحقيقة الواحدة فى شأن الإنسان وأنه خلق على هيأة وطبيعة تجعله يصيب ويخطىء ويأتى بالخير والشر ويصدر منه الصلاح والفساد وبأنه مخلوق ضعيف لا يمكن أن يحتمل فوق طاقته .

٢- أنه تعالى قد شرع أحكامه على أساس ملاحظة ذلك فجاءت تكاليفه وشرائعه لمعاونة الإنسان والبيان له لا للتحكم فيه ولا للاثقال عليه وجاءت تكاليفه ميسرة مخففة بريئة من التشديد والإعانات والارهاق، وجاءت معاملته للناس متمشية مع العدل والرحمة والفضل والاحسان . .

٣- إن الله تعالى لا ينقص أجر عامل ولا يبخس أحداً حقه لا فى الدنيا ولا فى الآخرة .

٤- إن الله تعالى يغفر الصغائر والهنات بمجرد البعد عن الكبائر أى عظام الذنوب .

٥- إن العبد إذا ارتكب الكبيرة لم يقنطه الله من رحمته ، ولم يتركه يحتمل فى نفسه مرارة الشعور بأنه مطرود يائس ، ولكنه يدعوه إلى توبة ويطلب منه أن يطرق بابها . ويعده بأن يتقبل توبته الصادقة ولو تكرر منه الذنب وتكررت من التوبة .

٦- وأنه جل شأنه يرجى عبادة ترجية أخرى اذ ينبئهم أنه هو الغفور الرحيم ، وأنه من حقه أن يغفر لأهل الكبائر ولو ماتوا دون أن يتوبوا ماداموا غير مشركين .

٧- أنه تعالى يضاعف الحسنة فيجعلها عشرة أمثالها ، ثم يضاعف الجزاء لمن يشاء أضعافاً كثيرة لا تقف عند حد .

كل ذلك يحيى الآمال ، ويفتح أمام المؤمنين آفاق الرجاء ، ويدفعهم إلى العمل خفافاً غير مثقلين بشعور الإثم ، ولا مكبلين

بأغلال اليأس .

كل هذا عـزيزى القـارىء . . هو المبحث الأول من كتـابنا الشيق والذى شمل المبادىء والتوجيهات التى أقامت عليها سورة النساء ونظام المجتمع الإسلامى .

ومن المبحث الأول إلى المبحث الثانى الذى تناول أهم الأحكام التى تضمنتها السورة الكريمة .

١- أحكام اليتامى :

عنى القرآن الكريم فى المكية منها والمدنية باليتامى ، ولكننا نستطيع أن نقول أن سورة النساء كانت هى أبرز سور القرآن الكريم فى هذا الشأن ، فقـد عنيت بالتشريع لليتـامى ، وجعلت المجتمع متكـافلا فى القيـام بأمـوالهم ورعـاية شـؤنهم ، والتشريع الـذى جاءت بـه السـورة فى شأن اليتامى يرجع إلى ما يلى :-

١- حفظ أموال اليتامى .

٢- إصلاح هذه الأموال بالقيام عليها وحسن التدبير لها .

٣- الانفاق على اليتامى من أمـوالهم والعمل على أن يكون الانفاق من ربحها وثمراتها لا من أصلها ورأسها .

٤- اصلاح اليتـامى من أنفسهم بتربيتهم تربية صالحة قـائمة على تكريمهم والاعتـداد بشخصيتهم وتعليمهم كل ما بـه يكونـون مواطنين صالحين وأعضاء فى المجتمع نافعين .

٥- ارتسام النوايا الصالحة فى جميع شئون اليتامى أى الاخلاص لهم فى رعاية أموالهم وأخلاقهم ومصالحهم بحيث لا تنطوى النفوس على نية اغتيال أموالهم .

٦- الاشهاد عند دفع الأموال إلى اليتامى بعد بلوغهم سن الرشد .

٢- تعدد الزوجات :

شرع تعدد الزوجات للرغبة فى القيام لليتامى بالقسط ، وتحقيقا لأمر الله ، ورعاية لمصلحة اليتامى أنفسهم وأنه ليس مشرعا لمجرد ارضاء النفس وتحقيق الرغبة فى النساء وانه بهذا التفسير ليس غريبا عن موضوع اليتامى ولا دخيلا فى أحكامهم ، فإنه ذكر حلا لمشكلة من مشكلاتهم فى المجتمع حين تقضى المصلحة بأن يقوم عليهم وصى بالقسط وتقضى الآداب الإسلامية بأن يتحرج الرجل بمن هم أجنبيات عنه ، وأنه يمكن القياس على هذا الفرض بأن يباح التعدد إذا دعا داع إليه ، وأن يقيد التعدد إذا لم يكن له داع يشبه ما ذكره القرآن الكريم من إقامة القسط فى شأن اليتامى ، وان هذا كله مشروط مع توخى الغاية الشريفة بأن يأمر الزوج بعدم الجور فإذا خاف الجور وجب عليه ألا يعدد .

٣- أحكام المواريث :

نظام المواريث عامة وما اتصل بها من مبادىء استنبطها الفقهاء ومن دلالات على الحجب بالحرمان أو بالنقض ، وعلى درجات القرابة ، أغلب ذلك مأخوذ من سورة النساء .

إن مبدأ تنظيم أحكام الميراث مبنى على مبدأ الاعتراف بحق الإنسان فى أن يملك واختصاص قرابة معينة له فى أن ينتقل إليها ما يملك بعد موته ، وكلا المبدأين طبيعى ملائم للفطرة ولذلك قررها الإسلام ، وبنى على أساسها أحكامه فى الملكية والاختصاص والكسب والميراث وما يتصل بذلك كله .

ومن الشرائع الوضعية ما يخالف الإسلام فى التفصيل مع موافقته

فى مبدأ الملك والتوريث ، وترى فروع هـذه المخالفة فى الشريعة اليهودية وفى الشرائع القديمة للعرب وفى القانون الرومانى والفرنسى .

وللاسلام فيما شرع حكمته وفلسفته وكلها مستندة إلى حكم الطبيعة متمشية مع دواعى الفطرة .

ولو ذهبنـا نتتبع كل حكم من أحكام الميراث لوجدنـاه على أساس من الموازنة العادلة بين كل عضو فى الاسرة ، وما يؤديه للمجتمع من نفع ، وهذا هو المعنى الذى يشير إليه قـوله تعالى فى آخر الآية الأولى من آيتى المواريث الأساسيتين :-

﴿آباؤكم وأبناؤكم لا تدرون أيهم أقـرب لكم نفعاً فريضة من الله إن الله كان عليماً حكيماً﴾ (سورة النساء - ١١)

٤- جريمتان فاحشتان :

عرضت سـورة النساء لجريمتين من أشنع الجرائم التى من شأنها أن تؤدى بالمجتمع إلى فساده وأن تسلب أعضـاءه رجالاً ونساء ما لكل منهما من خصائص ، وذلك ما جاء فى قوله تعالى :-

﴿والـلاتى يأتين الفاحشـة من نسائكم فـاستشهدوا عليهن أربعـة منكم ، فإن شهدوا فأمسكـوهن فى البيوت حتى يتـوفاهن الموت أو يجعل الله لهن سبيلاً ، واللذان يأتيانها منكم فأذوهما فإن تـابا وأصلحا فأعرضوا عنهما إن الله كان تـواباً رحيماً﴾ (سـورة النساء - ١٥ ، ١٦) أى أن الآيـة الأولى تقول : **﴿واللاتى يأتين الفاحشة من نسائكم﴾** وتقول الآية الثانية **﴿واللـذان يأتيـانها منكم﴾** وضعت كل من الآيتين العقـوبـة المنـاسبـة للجريمةالتى تتحدث عنها ، فعقوبـة النساء اللاتى يرتكبن هذه الفعلة المنكرة أن يمسكن ويحبسن فى البيوت كى يبتعدن عن الجو الذى يتمكن

فيـه من الاتصـال بنسـاء غيرهن إلى أن يتـوفـاهن الموت فينتهى بـذلك أمرهن، أما الرجال ﴿اللذان يأتيانها منكم﴾ فعقوبتهم هى الايذاء وهى عقوبة فوضها الشارع لـولى الأمر فله إذا ثبتت الجريمة المنكرة على رجلين أن يـؤذيهما ، والأذى درجات وللقـانـون المستمد مـن هذا التفـويض أن ينظمـه ويجدده كما تقضى بـذلك المصلحـة ، وكما يتنـاسب مع شيـوع الجريمة فى المجتمع .

٥- أحكام التوبة :

التوبة فى الأصل : الرجـوع ، فإذا رجع الإنسان إلى نفسه وندم على فعل القبيح وعزم على ألا يعـود كان تائبا إلى الله راجعاً إليـه ، وذلك لأنه حين كان مرتكبا للذنب كان منصرفـا عن الله آبقا ، والتوبة من العبد إلى الـرب جل جـلالـه إنما هى ارتبـاط متبـادل على الـرحمة والحلم من الله والترجى والاسترحام من العبـد ، ومادامت هـذه الرابطة بين العبـد وربه قائمة فإن الافراد بخير وإلى خير ، والمجتم بخير وإلى خير .

وينقسم التائبون إلى أصناف .-

(أ) المبادرون من قريب . (ب) الموفون حتى يحضرهم الموت

(جـ) الذين يموتون متلبسين . (د) المؤملون إلى حين .

٦- أحكام الأسرة :

الأسرة هى المجتمع الصغير الـذى يتربى فيه الإنسـان ، وينشأ من أول عهده فى الحيـاة فى أحضانـه ينطبع بطابعـه ، ويرى الأشيـاء بعينه ، وهذا المعنى يقـرره القرآن الكـريم حيث يقول : - ﴿والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه والذى خبث لا إلاّ يخرج نكداً﴾ (سورة الأعراف - ٥٨)

لم تقتصر سورة النساء على معالجة شئون الأسرة من ناحية الزوجية ولكنها بدأت من الأساس فأمرت بإنصاف اليتامى والنساء بإعتبارهم أضعف أفراد الأسرة .

أما أحكام الأسرة من ناحية الزوجية فإننا نجد أول ما عنيت به السورة من ذلك هو وجوب إعطاء النساء مهرهن ، كما عنيت سورة النساء بحماية الأسرة من الرذيلة ، وعنيت بحماية المرأة من أن تتعرض بعد موت زوجها إلى ظلم ذوى قرباه ، وعنيت السورة بحماية الزوجات من أن يفضلن أزواجهن بغير مبرر ، وعنيت السورة بالحياة الزوجية من حيث حسن المعاشرة فأوجب الله معاشرة النساء بالمعروف وبين أن عاطفة الحب أو الكره ليستا دائما أمارة على المستقبل السعيد أو الشقى ، وتتلخص الأحكام التى جاءت بها هذه الآيات فيما يلى :-

١- على الرجل ان يعاشر زوجته بالمعروف .

٢- على المرأة أن تطيع زوجها وتخضع لرياسته ، وأن تحفظ كل ما أمر الله بحفظه فى نفسها وبيت زوجها فقد جعلها الله أمينة على ذلك .

٣- على الرجال والنساء كليهما أن يرضخا لحكم الله فى تهيئة كل منهما على الوضع المناسب للمقصود منه فلا يتطلع النساء إلى ما خص الله به الرجال وجعلهم مفضلين فيه ، ولا يتطيع الرجال إلى ما خص الله به النساء وجعلهن مفضلات فيه .

وقد عالجت السورة أحوال الخلاف بين الزوجين مثل نشوز المرأة ، وكيف أنه يعالج بالموعظة أولاً والهجر فى المضاجع ثانيا والضرب ثالثاً ، كما عالجت السورة أيضا حالة الشقاق بين الزوجين .

وبينت السورة المحرمات من النساء ، وبيان الحكمة فى تحريمهن

ويرشدنا الله إلى أن نختار الزوجات من البيئات الصالحة التى تغلب فيها العفة والحصانة ولا ننسى الاحتياط والحذر إذا اضطررنا إلى أن نتزوج من بيئات يغلب عليها التحلل وعدم التحفظ حتى لا تندفع دون تبصر ، وفى هذا أيضا توجيه للنساء أن يتكملن وأن يعتصمن بأخلاق الشرف والتقوى والعفة .

٧- قاعدة التعامل المالى :

يقول الله تعالى فى سورة النساء : ﴿ياأيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم ، ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيما﴾ (سورة النساء - ٢٩)

إن الله تعالى يجعل قاعدة التعامل العامة فى المجتمع هى التبادل الذى قوم على التعادل والتقابل ، وان يستثنى من هذا العموم حالة التعامل على وجه التجارة - التى هى من مال وعمل - فيبيح أن يكون هناك ربح لا مقابل له من عمل أو مال ، وأنه لا يقيد الاباحة فى هذا إلا بقيد واحد فهو أن يكون التعامل عن تراض من المتعاملين وأن ما وراء ذلك من القيود والشروط يجب أن يكون موضع النظر والدرس .

٨- أركان الإيمان والعقيدة الصحيحة :

لايمكن أن يكون مجتمع من المجتمعات مؤلف من صنف واحد من الناس هم جميعا على شاكلة واحدة فى التفكير ، وعلى مبدأ واحد فى العقيدة الدينية ، ولكن المجتمعات الطبيعية هى التى تكون موطنا متسعا لكل منهج من مناهج التفكير ، والمجتمع الإسلامى فى المدينة فى عهد الرسول كان مجتمعا طابعه العام هو العقائد والمبادىء والأفكار التى جاء

بها الاسلام ، لكنه كان مع ذلك مجتمعا مشتركا يضم فريقا كبيراً من اليهود لهم دينهم وتقاليدهم ويضم أفراداً من النصارى وكان على الإسلام ان يضع السياسة التوجيهية لهذا المجتمع لذلك نرى سورة النساء فى هذا الجانب تبين موقف الإسلام بيانا واضحا يجد فيه كل فرد من أفراد المجتمع دعوة موجهة إليه يتدبرها فى نفسه وعقله ويحدد أمامها موقفه حراً مختارا .

جاء فى السورة الكريمة أصول الايمان فى كل دين هى :-

١ - الايمان بالله .

٢- الايمان بالرسول .

٣- الايمان بجميع الكتب المنزلة .

٤- الايمان بعالم الغيب .

٥- الايمان باليوم الآخر .

وهكذا - عزيزى القارىء نأتى إلى نهاية جولتنا مع معلم من المعالم الإسلامية التى تزخر بالعديد من الدراسات فى كل المجالات وخير ختام قول الحق تبارك وتعالى فى سورة النساء :

﴿ياأيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم فى رحمة منه وفضل ويهديهم إليه صراطاً مستقيماً﴾ . (سورة النساء - ١٧٤ ، ١٧٥)

إن الخير فى الاستمساك بالإسلام عقيدته وشريعته وأخلاقه وآدابه ومثله العليا .

● الإسلام يعنى عناية دقيقة بالفرد والمجتمع والأمة وعلاقاتها بغيرها على أساس من النصفة والعدل .

● مشرق نور الإسلام ، والحاجة الدائمة إليه ، والتدين به . فهو الطريق الوحيد للسلام العالمى والسعادة الإنسانية .

● العقيدة وأثرها فى الإنسان وبناء الأمة ، وفى تحقيق حياة العز والكرامة .

● التشريع الإسلامى سنة الرسول ومكانتها ، مقارنة بين الشريعة الإسلامية والقوانين الوضعية .

● المرأة والأسرة فى الإسلام ، الوطن الإسلامى وخطر تعدده ، صور بشرية لكثير من الناس فى القرآن الكريم .

● توجيهات من كتاب الله وسنة رسوله .

تلك بعض الأهداف التى قصدها كتاب «الإسلام والحياة» للدكتور/ محمد يوسف مرسى ... هى أهداف فى جملتها تشكل الاطار العام للدعوة الإسلامية ، وعلاقتها بالحياة التى نعايشها ولابد لنا ونحن

فى هذا الصدد أن نقف وقفات نستشعر منها الهدى والهداية .

وأول ما يطالعنا قضية عامة هى : «أنه لا غنى عن الدين الحق وهو الإسلام» جعلها المؤلف بداية يدخل تحتها موضوعات عدة تعالج كل منها بأسلوب سهل شيق .

●● لابد من الدين :

الدين الحق ... نظام إلهى يرشد إلى الحق فى الاعتقاد ، والخير فى السلوك والمعاملات وهو لهذا يكون العامل الأول لنجاح متبعيه فى هذه الحياة ولسعادتهم أيضا فيما بعد فى الدار الأخرى وعاطفة التدين أو الاعتقاد بدين من الأديان ، أمر غريزى ومشترك بين الناس عامة فى كل عصر ومكان فإنه لم تخل جماعة من الناس فى أى زمان من عقيدة دينية على نحو ما .

وإذا كان الدين والتدين هكذا أمراً غريزياً وفطرياً فى الإنسان فى كل زمان ، فإن الدين الإسلامى هو الدين الحق الذى رضيه الله تعالى للناس جميعا ، وأرسل به خاتم الأنبياء والمرسلين هدى ونوراً للعالمين ، وجعل القرآن كتابه الأول فرقانا من الحق والباطل فى الاعتقاد والعمل على السواء . يقول سبحانه وتعالى : ﴿**ثم جعلناك على شريعته من الأمر فإتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون**﴾ .

مشرق النور :

لم يترك الله سبحانه وتعالى أمة من الأمم فى الأزمان الماضية من غير أن يرسل إليها من يرشدها إلى الحق والطريق المستقيم ، حتى كانت أخيراً رسالة سيدنا موسى ، ومن بعدها رسالة سيدنا عيسى عليهما السلام .

ولما أن درست آثار كل من هاتين الرسالتين أو كادت وأصبحت الإنسانية مستعدة لقبول دين جديد عالمي ، يكون خاتم الرسالات الإلهية السابقة ، أشرق النور الذي عم أرجاء العالم كله ، والناس جميعاً ، وذلك هو رسالة الإسلام التي اصطفى الله لحملها خيرة أنبيائه ورسله وهو سيدنا محمد - ﷺ -

●● كان العرب أهل محامد ، وتقاليد طيبة لكنهم مع ذلك كانوا - إلا من عصم الله - عبده أوثان وأصنام يقولون : ﴿مانعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى﴾ .

وقد بلغ من إسرافهم على أنفسهم في هذه الناحية أنه كان لكل قبيلة أو بلد صنم خاص بهم يعبدونه ، بل ربما كان للبيت الواحد صنم خاص بأهله .

●● وكان الضلال في الفرس عاماً شاملاً لكل شؤون الحياة في العقيدة والأخلاق والمجتمع والعلاقة بين الحاكم والرعية .

كما كانت بلاد الفرس هذه أيضاً مهداً لديانات كثيرة يجمع بين نحلها المختلفة في التفاصيل القول بإلهين إثنين ، أحدهما إله الخير والنور ويسمى «يزدان» والثاني إله الشر والظلمة ويسمى «أهرمن» .

وهذه الأديان والنحل المتعددة كانت سبباً لشر كثير أصحاب الدولة الفارسية أفراداً وجماعات .

●● وكان الدين السائد في بلاد الروم ، ومايتبعها من الأقطار والولايات المختلفة والشام ومصر هو المسيحية السمحة التي تدعو إلى الله واحد ليس المسيح - عليه السلام - إلا كلمته ورسوله ، وإلى المحبة ومايكون عنها من تعاون وصفح مغفرة ، لكن هذا الدين السماوي قد

استحال على أيدي الخارجين من أصحابه إلى دين معقد من العسير فهمه ، وذلك بما أضيف إليه من آراء باطلة وشعائر عسير إدراكها إن لم يكن ذلك من المستحيل ، وكان هذا الإنحراف أيضاً مصدر بلاء وشر كثير .

وهكذا كان العالم كله في حاجة إلى إنقاذ عاجل بدين سماوي جديد . . إذ كان الحال على درجة كبيرة من فساد العقيدة ، ومن الفوضى في المجتمع ، والإنحلال في الأخلاق كان هذا الإنقاذ بإشراق نور الإسلام آخر الرسالات الإلهية ، وأن يكون رسوله المصطفى خاتم الأنبياء والمرسلين .

الحاجة إلى التدين بالإسلام :

الإسلام هو دين الوحدة الدينية والسياسية والإجتماعية ،وهو على هذا الدين الفطرة السليمة ودين العقل والوضوح ، ودين الحرية والإخاء والمساواة إلى آخر الخصائص التي يتميز بها هذا الدين الحنيف من غيره من الأديان الأخرى ، ولكن مع هذا كله فلأن الأمر الجدير بالنظر والتقدير هو التدين بالدين والعمل به لا مجرد الإنتساب إليه ، فإن كل دين سماوي فيه هدى ونور ، إلا أن هذه الأديان السماوية قد نالها الكثير من التحريف والتبديل من أجل ذلك كان لابد من دين جديد فيه من التشريعات والنظم مايناسب البشرية في كل عصر وكان الإسلام هو هذا الدين الذي وفى بذلك كله فاتسع انتشاره وحسن تقبل الناس له فخرجوا من الظلمات إلى النور ، من الضلال إلى الهدى ، والله يهدي من يشاء إلى الصراط المستقيم .

●● شمول الإسلام لكل شؤون الحياة :

الحياة سعي وعمل ، وكفاح وجهاد في سبيل العيش الكريم ، والحق والبر ، للفرد والمجتمع على السواء ، بل للإنسانية عامة .

والدين الإسلامي جاء مصدقاً لذلك كله فهو يعني أشد العناية بشؤون الدنيا وشؤون الآخرة معاً ، ففي القول المأثور : «اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً» ولذلك نراه لا يأمر متبعيه بإطراح الحياة الدنيا ، بل يحثهم على العمل ، والعمل دائماً وعلى الإفادة من الأرض وما فوقها وما تحتها ، ومن سائر ما خلق الله وسخره للإنسان يقول سبحانه وتعالى : ﴿وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله﴾ ﴿تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير ، الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً﴾ .

وبجانب هذا نجد الرسول - صلوات الله وسلامه عليه - كان قدوة في العمل لأصحابه من المهاجرين والأنصار ، فكان يشركهم في كل عمل تدعو إليه المصلحة ، وكذلك كان حاثاً بأقواله على الجد والعمل ، مبيناً أنه أمر شريف وواجب على الجميع ، وأن الكسل وسؤال الناس أمر لا يتفق وعزة الإنسان وكرامته .

يقول - ﷺ - «لأن يحتطب أحدكم حزمة على ظهره خير من أن يسأل أحداً فيعطيه أو يمنعه» .

ولعناية الإسلام بالدنيا والآخرة معاً - وبالفرد والمجتمع وبالأمة والعالم ، الإنسانية كلها نراه يعني بالتشريعات والنظم التي تنظم العبادات والمعاملات وشؤون الحكم ، ويهتم بالآداب التي ينبغي أن تسود العلاقات بين الناس في كل حال فهو لذلك كله شامل لشؤون الدين والدنيا والأمة والدولة في علاقاتها مع الدول الأخرى .

●● الإسلام والإنسان :

الإيمان بدين ما حاجة من حاجات النفس البشرية متى كانت على فطرتها السليمة لابد من تلبيتها ، بل لعله يكون في طبيعته غريزة لابد من

أن نجد لها مظهراً ومتنفساً وذلك لأن الإنسان طلق بطبعه .

والإسلام هو الدين الحق ، خاتم الرسالات السماوية والشرائع الإلهية ، وبه تمت نعمة الله على الإنسان جميعها فهو - أي الإسلام - يعترف بالواقع حين اعترف بنظام الطبقات الإجتماعية ولكنه في الحقوق والواجبات على اختلاف ضروبها وأنواعها بين الفقير والغني ، وبين الضعيف والقوي ، ثم بعد هذه التسوية ، فرض في أموال الأغنياء القادرين حقوقاً للفقراء والمحتاجين ، وذلك بنص القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة .

ولم يجعل الدين الإسلامي للغني فضلاً بسبب غناه ، ولا للشريف ميزة لنبالة مولده بل وسع الجميع عدله ورحمته وانتصف من القوى للضعيف ، وأخذ من الغني للفقير وحث الجميع على أن يعيشوا إخواناً تؤلف المحبة بين قلوبهم ، ويؤكد التعاون في السراء والضراء مابينهم من وشائج وصلات وذلك لأنهم جميعاً لآدم ، وآدم من تراب وها هو ذا القرآن الكريم يقول :

﴿يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾ .

كما يقول الرسول - ﷺ - : **«كلكم لآدم وآدم من تراب لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى»** .

●● العقيدة وأثرها في بناء الأمم :

لعظمة الأمة وصلاحيتها للحياة الكريمة المجيدة مقاييس مختلفة .

ولعل أول هذه المقاييس ، أن تكون على عقيدة حقة فيما تريده

وتعمل له سواء في الدين أو الإجتماع أو السياسة لأن الإعتقاد في شيء ما حاجة من حاجات النفس لابد من تلبيتها ، وهي بعد ذلك قوة دافعة إلى الأمام لا يقف شيء أمامها متى كانت صادقة خالصة لا يشوبها نفاق أو انحراف .

وإذا كانت العقائد التي تهيمن على القلوب ، ويكون لها السلطان على النفوس فإن أعلاها بلا ريب العقيدة الدينية في الله الواحد الأحد ، في الله الذي وعد عباده المؤمنون به - حق الإيمان - عز الدنيا وسعادة الآخرة .

والإنحراف عن العقيدة له آثار سيئة وخطيرة في عقيدة الفرد وحياته وفي حاضر الأمة ومستقبلها . ولقد وعي الإسلام - ذلك الدين القيم - بكل هذا وذاك فأتى بعقيدة وشريعة ، ودين ودولة معاً .

●● القيم الروحية وأثرها في الحياة :

الدين الحق يعرف لكل من الجسم والروح حقه ، ويوحي إلى الإنسان أن يعمل على الا يطغى أحدهما على الآخر ، وهكذا شأن الإسلام لم يغفل شأن الجسم أو الروح فلم يجعل الرهبانية سنة من سننه ، ولا فضيلة من فضائله ، كما لا يرضى لأحد من أبنائه أن ينال من لذائذ الحياة ما شاء له الجشع والشره ، إنما أمرنا أن نعيش في قصد واعتدال ، وأن يكون أمرنا قواماً بين الإفراط والتفريط وفي ذلك يقول القرآن الكريم في صفات المؤمنين : ﴿والذين إذا انفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا ، وكان بين ذلك قواماً﴾ ، ﴿قل من حرم زينة الله التي اخرج لعباده والطيبات من الرزق﴾ . ولعل «الإيمان» بكل ما تتسع له هذه الكلمة من معان ومدلولات عمدة القيم الروحية جميعها فمتى ملأ القلب ، واستقر في

النفس يكـون أصل الخير ومنبعـه ومعين الـرحمة والقوة والعـدل والـوفـاء والإحسان ، والإخاء والتعـاون والصدق والشجاعة والكـرم والإيثار محبة الغير والإنسـانيـة كلها ، إلى غير ذلك كلـه من جميل الصفـات وكـريم الأخلاق .

●● الإسلام والعلم :

من الثابت الـذي لا ريب فيه أن الإسـلام هو دين العقل والعلم ، والسبب في هذا أن القرآن يحث على العلم وطلب المعرفة بكل سبيل .

ولقد كان من أول ما أنزل الله تعالى على رسوله المصطفى ، معلماً ، وهاديـاً للبشرية كلها قولـه جل ذكره : ﴿**اقرأ بـاسم ربك الذي خلق . خلق الإنسان من علق . اقـرأ وربك الأكرم . الـذي علّم بالقلم . علم الإنسان ما لم يعلم**﴾ كذلك أرشدنا القرآن في كثير جداً من آياته أن العمل بكل ما نستطيع للوصول إلى علم مالم نعلم يقول تعالى :

﴿**قل هل يستوي الذين يعلمون ، والذين لا يعلمون**﴾

﴿**وقل رب زدني علماً**﴾ .

كان من أثر دعوة الإسـلام بقوة إلى طلب المعرفة والعلم بكل سبيل ، أن أقبل العرب والمسلمون على طلب العلم بجد ، وان استوعبوا فلسفة القدامى وعلـومهم وأن أضافوا كثيراً إلى مـا أخذوه عن هـؤلاء القدامى ، وان نبغوا في هذه النواحي نبوغاً منقطع النظير .

●● الإسلام والحياة المثالية :

إذا كان الله تعالى يريد القـوة والعزة للمؤمن الحق ، العامل بما جاء

به القرآن ، بما دعا إليه الرسول فإنه سبحانه يدعوه إلى أن يطلب معالي الأمور ويترك سفسافها كما جاء في الأثر : «إن الله يحب معالي الأمور ، ويكره سفسافها» .

ومن ثم ليس لأحد منا أن يرضى لنفسه بالمنزلة الدون في الحياة ، وعليه أن ينأى بها عن مواطن الذلة والصغار ، كما أن عليه أيضاً أن يطلب دائماً بجده وعمله منزلة أعلى من التي يكون فيها ويستخدم في ذلك ما يملك من قوى الجسم والعقل والنفس والروح ، بهذا يصون كرامته ويرفع قدر نفسه ، وفي ذلك الخير كل الخير لنفسه وأمته .

وفي غزوة (بدر) ومقدماتها مثل رائعة لطلب المؤمنون معالي الأمور ، وإن لقوا في سبيلها أذى وضرراً شديدين ، فهذا الرسول يستشير أصحابه من المهاجرين والأنصار ، حين بلغه أن قريشاً ألقت إليهم بأفلاذ أكبادهم وجاءت إلى ماء (بدر) بخيلها ورجالها يتحرشون بالمؤمنين ، فقام من كبارهم من طمأن الرسول إلى أنهم ينصرونه في كل حال ، ولن يقبلوا الدنية في دينهم وأنفسهم وكان من كلام زعيم الأنصار سيدنا سعد بن معاذ في هذا المقام للرسول عليه الصلاة والسلام :

«لقد آمنا بك وصدقناك ، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق ، واعطيناك على ذلك عهدنا ومواثيقنا على السمع والطاعة ، فامض يا رسول الله لما أردت فنحن معك ، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ، ما تخلف منا رجل واحد ، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً ، انا صبر في الحق ، صدق عند اللقاء ، لعل الله يريك منا ما تقربه عينك ، فسر بنا على بركة الله» .

فسر النبي - ﷺ - ونشطه ذلك ثم قال : «سيروا وابشروا فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين ، والله لكأني الآن انظر إلى مصارع القوم» .

تلك مثل قوي الأثر والدلالة على مبلغ حث الإسلام على طلب معالي الأمور ونموذج رفيع في حياة الأفراد والجماعات وفي كل ما يعالجون من أمور وما يفعلون أو يدعون من أعمال .

وما أن ينتهي الأستاذ من عرض موضوعات ماهية الدين الحق وهو الإسلام حتى يبدأ في معالجة جانب عام من الجوانب الأخلاقية التي تشكل العلاقة بين الفرد ومجتمعه في ظل الإسلام ، التي من أهمها .

●● الإحسان في القول والعمل :

إن الكلمة الطيبة يجيء بها قائلها في موضعها تفعل فعل السحر ، وتحدث أكبر الأثر وتكون لها العاقبة المحمودة في النفوس وبخاصة النفوس الكريمة العنصر التي لا تحمل الضغن ولا تصر على الحقد .

ها هو ذا الرسول - ﷺ - وقد ظفر بالمشركين ، ودخل مكة عام الفتح يقول لصناديد قريش : «ماتظنون أني فاعل بكم» ؟ قالوا خيراً ، أخ كريم ، فما كان إلا أن قال : «إذهبوا فأنتم الطلقاء» .

وفي الخصومة والجدل ، تفعل الكلمة الطيبة فعلها المحمود ، وربما كانت المجادلة بالحسنى أقرب إلى الإقناع والوصول إلى الحق يقول سبحانه وتعالى :

﴿ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن﴾ .

وقد كان الرسول في هذا مضرب المثل سواء مع صحابته الأكرمين ، أو مع خصومه المشركين وأهل الكتاب المعاندين ، وفي هذا يقول الله جل ذكره :

﴿فبما رحمة من الله لنت لهم ، ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك﴾ .

لـذا كله كـان علينـا أن نتقي الله في كل مـا نقول ومـا نعمل ، بأن نحسن ما نتنـاوله في مختلف شؤون حياتنـا وأن نتريث حتى يأتي ما نفعل على أحسن وجه ، فإن الله يحب الرفق في الأمر كله ، ويحب المحسنين .

●● القصد والإعتدال :

نادت الأديان كلها ، وصدع فلاسفة الأخلاق منذ أقدم الأزمان بأن الخير في الوسط من الأمـور ، وفي القصد والإعتدال في كل شـؤون الحياة ومطالب الجسد والنفس .

ولقـد حرص القـرآن الحرص كلـه على تثبيت هذا المعنى في قلـوب أبنائه في شتى شؤون الحياة ، سواء ما تعلق منها بالجسد ورغباته وإرضاء مطالبـه ، أو ما يتصل بـالمال وجمعه وانفاقـه أو ما يرتبـط بالنفس وكبت غرائزها ، أو تركها تسير مع هواها .

فـالقرآن الكـريم يقـول : **﴿يـابني آدم خـذوا زينتكم عنـد كل مسجدٍ، وكلـوا واشربوا ولا تسرفوا ، إنـه لا يحب المسرفين ، قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق﴾** .

وليس الإسراف في المال هو المذموم وحده خلقاً وشرعاً ، بل كذلك الإسراف في الـوقت . . . وان مما يعين على القصـد والإعتدال في الـوقت تنظيمه وتقسيمه قسمة عادلة ، فجزء منه للعمل وجزء للعبادة ، وثالث لصلـة الـرحم ، ورابع للـراحة والإستجمام ليستطيع الإنسـان استئنـاف العمل ، وهو عليه قادر والشوق إليه شديد .

والقصد والإعتدال مطلوبان أيضاً في جهة الخير التي لا شك في أنها خير ، وهي عبادة الله لشكر ما أنعم به علينا من نعم لا سبيل إلى إحصائها وحصرها ، وذلك بأنه قد يؤدي التشديد والإفراط في العبادة إلى الإضرار بالجسد ، فيعجز الإنسان عن العبادة أو تثقل آخر الأمر على النفس فيكون من ذلك الكسل والتراخي والميل إلى ناحية التفريط .

وهكذا فالقصد والإعتدال في كل شيء حتى في العبادة سبيل النجاح والوصول إلى المطلوب .

●● الرجاء والخوف :

يفتح القرآن الكريم أمام المؤمنين به باب الرجاء والأمل على مصراعيه ، وينادي بأن الله سبحانه لا يضيع أجر من أحسن عملاً ، سواء في هذا العمل للدنيا والعمل للآخرة ، والقرآن يفهمنا بصراحة لا لبس فيها أنه لا يتفق اليأس مع الإيمان بالله القادر الذي ينجح من يعمل ولا يكتفي بالأماني يقول تعالى :

﴿وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً﴾ .

وجاء في الحديث القدسي : **«أنا عند ظن عبدي وأنا معه إذا ذكرني»** . وماينبغي أن يفرط المسلم في الرجاء وطول الأمل والتمني بغير حق فالرسول - ﷺ - يقول في بعض ما روى عنه : **«الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، والعاجز من اتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني»** .

كما يقول أيضاً : «إن أشد ما أخاف عليكم خصلتان : إتباع الهوى وطول الهوى» .

•• التقليد وخطره :

من الأمور التي تؤدي إلى الإنحراف عن الجادة التقليد عن غير بصيرة لأنه من الظواهر الإجتماعية التي نراها في كل زمان ومكان ومنه مايكون فيه الضرر للفرد والمجتمع والأمة على السواء .

لذلك ينبغي أن نحذر فلا نسرف في التقليد ، وبخاصة فيما لا نعلم علم اليقين أنه خير فذلك أكبر من نفعه ، وحسبنا أن ينتهي التقليد بمحو شخصية المقلد وصيرورته تابعاً لغيره في تفكير ، وطرائق حياته الإجتماعية ، وهذا ما لا يحبه الإسلام أو يحض عليه ، فالمرء في نفسه قوة تفعل . . . قوة لها أثرها الطيب في بناء وتقوية الشخصية للفرد والجماعة والأمة على حد سواء .

•• أثر السنة في التشريع الإسلامي :

يقوم الإسلام على دعامتين قويتين ، واصلين مقدسين هما كتاب الله المحكم ، وسنة رسوله الصحيحة ، وبين هذين الأصلين ارتباط طبيعي قوي ، تراه ماثلا في كل ما يأتي به من تشريع ، وفي كل ما دعا إليه من أخلاق ومبادىء تقوم عليها الحياة ، ومثل عليا تسعد بها الإنسانية .

يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم﴾ . .

﴿يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله ، واطيعوا الرسول ، وأولى الأمر منكم فإن تنـازعتم في شيء فردوه إلى الله والـرسول إن كنتم تـؤمنون بـالله واليوم الآخر﴾ .

وأوضح أن معنى طلب الله تعـالى أن نرد ما اختلفنـا فيه إليـه ، هو الرد كتابه العظيم ، وان معنى الرجوع إلى الرسول هو الرجوع إلى سنته بعد أن لحق بالرفيق الأعلى .

والسبب في ارتبـاط القرآن بـالسنـة في التشريع هو أن كتـاب الله لم يتنـاول في كثير من الأحوال والأحكـام والمبـادىء التشريعية من عبـادات ومعاملات وغيرهما إلا بإجمال وعلى نحو كلي فكان لابد من بيان وتفصيل لما جاء به واذن يكون لابد من الإستماع لسنـة الرسول واطاعتها ، والنزول على أحكامهـا بإعتبار أنها بيـان للقرآن وتفسير لـه ، ولا عجب فإطـاعة الرسول ليست إلا إطاعة لله جل وعلا وفي هذا يقول سبحانه وتعالى :

﴿من يطع الرسول فقد أطاع الله﴾ .

ويذكـر لنا المؤلف بعض المثل التي يستشف منها الرابطـة التي لابد منها خـاصة من النـاحية التشريعيـة . . . يقول «إن الكتـاب لم يبين لنا عدد ركعات كل صلاة ، ولا كيفية الصلاة نفسها فجاء الرسول - ﷺ - وبين لنا ذلك كله بقوله حينـاً ، وبفعله حيناً آخر وهذا حين صلى رسول الله وقال : «صلوا كما رأيتموني أصلي» .

وكـذلك الأمر في الصـوم فقد فـرض الله تعالى صـوم شهر رمضـان وجـاء في بضع آيـات من القرآن إلا أن السنـة هي التي بينت أن الصـوم يكون من الفجر إلى غروب الشمس ، وأن علينا أن نبدأ بالصوم متى رأينا هلال رمضـان ، وأن نفطر متى رأينـا هلال شـوال ، كما بينت حكم من يفطر عمداً أو ناسياً ، وغير ذلك مـن أحكام الصيام ، وأيضاً كان شأن

الـزكاة فقـد أمر بها القـرآن في كثير من الآيات بلفظ الـزكاة تـارة ، ولفظ الصدقة تارة أخرى لكن السنة النبوية هي التي تبين لنا الأموال التي تجب الزكاة فيها ، والمقدار الواجب في كل نوع منها ، ومتى تجب .

وفي الحج جاءت السنة فبينت لنا كيفية الإحرام ومواقيته ومتى يكون واجباً وعدد مرات السعي بين الصفا والمروة ، وكيفية ومقدار الزمن الذي يجب الوقـوف فيه بعرفـة إلى غير ذلك كله ، مما يتعلق بـالحج حتى صار معروفاً تمام المعرفة .

●●●

وإذا تركنا العبادات إلى المعـاملات التي تجري بين الناس في حياتهم اليـومية نجـد أن السنة قـد بينت لنا الكثير من ضر وبها التي جـاءت في القرآن بإجمال ، أو التي أشار إليها لا تغنى عن البيان والتفصيل ، بل إن السنة النبوية جاءت بأحكام للشريعة مهمة لم تذكر مطلقاً في القرآن . . ولنـذكر بعض المثل التي تبين هـذا الضرب أو ذاك في القرآن ، وأشـار في بعض آيـاته إلى وجـوب إبتناء عقـد البيع كسـائر العقود الأخـرى – على الرضى من الطرفين – وذلك إذ يقول في محكم آياته : ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراضٍ منكم﴾ .

إلا أن البيع له بعـد ذلك أركان وشروط يجب تـوافرها ليكـون العقد صحيحاً وإلا كان باطلاً أو فاسداً وهذه الشروط بعضها يتعلق بالثمن ، وهـذا كله لا نجـد له بيـاناً في القـرآن ، ولكن نجد هـذا البيان في سنـة الـرسول صلـوات الله وسـلامه عليـه – . لـذلك كله : وبعـد أن مضى العصر الأول من عصـور الإسـلام ، جـدت من الأحـوال والعـوامل مـا جعلت كتابة السنة وتدوينها في كتب ومجاميع جامعة أمر لابد منه .

أولاً : لإنتشار الكتابة بين العرب والإعتماد عليها في حفـظ المعارف

والعلوم المختلفة .

ثانياً : لظهور الخطأ غير المتعمد في كثير من أحاديث الرسول وسنته، بسبب الإعتماد على الراوي على حفظه فقط .

وكانت لتدوين السنة النبوية وجمعها في كتب ومجاميع أثر كبير في آراء الفقهاء وحياة الفقه نفسه ، وأن ذلك كان من ناحيتين :

(أ) الأولى أن رجال الحديث قدموا بأعمالهم مادة غنية وخصبة للفقهاء سواء أكان هؤلاء الفقهاء من أهل الحديث أم من أهل الرأي .

(ب) أما الناحية الأخرى فهي أن المسلمين جميعاً ، يرون أن الأصل الثاني لشريعة الله بعد كتابه هو سنة رسوله الذي لا ينطق عن الهوى فكان الفقيه لا يصبر إلى القول «بالرأى» والإفتاء به إلا إذا لم تثبت لديه سنة نبوية في المسألة التي اجتهد فيها برأيه .

وعلى سبيل المثال نذكر حادثة حصل فيها الرجوع إلى حكم كان سنده الرأي ، وذلك بعد أن علم القاضي بما ورد في هذا من سنة عن الرسول لم يكن يعرفها .

(اشترى مخلد بن خفاف غلاماً فاستغله ، ثم عرف أن فيه عيباً ، فخاصم فيه صاحبه إلى عمر بن عبد العزيز ، فقضى عمر برد الغلام إلى بائعه ورد غلته التي استفادها المشتري منه .

فأتى المشترى عروة بن الزبير فأخبره فذكر له أن الرسول قضى في مثل هذا أن الخراج بالضمان ، يريد أنه ليس على المشترى أن يرد للبائع غلة الغلام معه ، وانه سيقول لعمر بن عبدالعزيز أن هذا سمعه عن عائشة أم المؤمنين ، فلما علم عمر بذلك قال : ما أيسر عليّ من قضاء قضيته ، والله يعلم أني لم أرد فيه إلا الحق فبلغتني فيه سنة عن النبي فأراد

قضاء عمر - يعني نفسه - وأنقذ سنة رسول الله . . . وكان أن تم ذلك فعلاً أي على الوجه الذي رآه عروة إتباعاً لسنة الرسول - ﷺ - :

هذه هي منزلة السنة من القرآن في التشريع ، وهذا هو موقف الصحابة والتابعين ، والفقهاء في كل العصور منها ورجوعهم عن آرائهم ، وأحكامهم متى عرفوا شيئاً منها لم يكونوا يعرفونه وكان فيه حكم الحوادث والمسائل التي كانوا يبحثون بإجتهادهم عن أحكام لها .

وكان الزاماً أن يوضح المؤلف منزلة التشريع الإسلامي من بين التشريعات الأخرى .

يقول : «التشريع الإسلامي نظام شامل بلا ريب ، فهو يحكم الإنسان وتصرفاته في كل حالاته في خاصة نفسه وفي صلاته بالله تعالى ، وفي علاقاته بالمجتمع الذي نعيش فيه ، وفي علاقة الأمة أو الدولة الإسلامية بالدول الأخرى . . . إنه ينظم كل هذه العلاقات وذلك ببيان القواعد التي تهيمن عليها ، ويحكمها على اختلاف أنواعها» .

ويطول بنا الحديث إذا ما دخلنا في المقارنات الكثيرة بين التشريع الإسلامي وبين التشريعات الوضعية القديمة والحديثة ، لكننا نكتفي ببعض الأمثلة التي تبين لنا سمو التشريع الإسلامي على غيره من القوانين الوضعية في نواح كثيرة ليس من اليسير عدها واحصاؤها .

●● يرى الدكتور على بدوي وهو أحد المصرين الاعلام في القانون أن التشريع الإسلامي له استقلاله عن غيره من التشريعات القديمة ، وانه يفوق في كثير من النواحي غيره من التشريعات الحديثة ومن ذلك نظام (الحسبة) وهي وظيفة اجتماعية قانونية إسلامية تقابل وظيفة النيابة العمومية اليوم .

ونظام (العقاب بالتعزير) وهو ترك تحديد العقوبة نوعاً ومقداراً

للقاضي فيحكم بما يـراه تبعاً لما يراه من ظـروف الجريمة ، وحالـة المجرم ونفسيته هـو نظام يمتـاز به الفقـه الإسلامـي ، وينادي بـه كبار العلماء الجنائيين في العصر الحديث) .

●● والأستاذ الـدكتور/ عبـدالرزاق السنهـوري والدكتـور / أحمد حشمت أبـوستيت يقولان في المقـارنة بين الشريعـة الإسلاميـة والقانـون الروماني ما يحسن أن ننقله :

«لم تسلك الشريعة الإسلامية في نموهـا الطريق الذي سلكه الفقيه الرومـاني فإن هذا القـانون بـدأ عادات ، ونما وازدهـر من طريق الـدعوة والإجراءت الشكلية .

أما الشريعـة الإسلامية فقـد بدأت كتـاباً منزلاً ووحيـاً من عند الله ونمت وازدهرت من طـريق القياس المنطقي ، والأحكام الموضـوعية . . إلا ان الفقهاء المسلمين امتازوا على فقهاء الرومـان باستخلاصهم أصولاً ، ومبـادىء عـامـة من نـوع آخـر ، هي أصـول إستنبـاط الأحكـام من مصادرها وهذا ما سموه بعلم أصول الفقه» .

وبعد عرض تلك الأمثلة من آراء أكـابر عرض تلك الأمثلة من آراء أكـابر مشرعينـا يتبين أن حاجتنـا للتشريع الإسلامي أمـراً ضرورياً فقـد صلحت به امة عظيمة سادت البشرية قروناً طويلة ، ولن تصلح في هذا العصر ، وفي كل عصر إلا إذا أخـذنا بـه ، وقـامت أحيـاناً على أسسـه ومبادئه وأحكامه وينتقل بنا المؤلف إلى موضوع المرأة وموقف الإسلام منها . . فالمرأة كـانت ولاتزال حديث النـاس في كل مجتمع ، وحول مكـانتها قامت مشاكل عديدة في التاريخ القديم والحديث .

فمن المعروف تـاريخاً أن رب الأسرة اليونـانية والـرومانيـة كان يعتبر مـالكاً للمـرأة كما يملك متاعـه ، وأموالـه ، وكان لـه عليها حق الحيـاة

والموت ، فإذا تزوجت انتقلت هـذه الحقوق لـزوجها فليس لها أن تستغل بأمرها في شأن من شؤونها . . . وكان الأمر قريباً من ذلك عند العرب في الجاهلية قبل الإسلام فكـانت المرأة تعتبر متاعاً يورث بعـد وفاة زوجها ، كما كـانت لا ترث مـن أبيها ، ولا زوجهـا إذ كـانوا يقسمـون الميراث بين الذكـور الكبار الذين يستطيعـون القتال واحراز الغنـائم . . . كان ذلك شأن المرأة إلى أن جاء الإسـلام - دين المساواة والعدالة بين أبنـائه جميعاً - فكـان من الطبيعي أن تنـال المرأة كل ما يمكن أن يكـون لها من حقـوق تتفق وطبيعتها ، وصـالح البيت والمجتمع معاً ، والـرسول - ﷺ - يبين هذه الحقـوق والواجبات في خطبتـه في «حجة الـوداع» وذلك إذ يقول : «أما بعد أيها الناس فإن لكم على نسـائكم حقاً ولهن عليكم حقاً ، » إلى أن يقول «لهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف ، واستوصوا بالنساء خيراً» .

وهكذا قرر الإسلام لأول مرة في تاريخ الإنسانية المساواة بين الرجل والمرأة في المجتمع ووضع الأسس التي تقـوم عليها هـذه المساواة فكـرمها ورفع قيمتها ، وأعطاها من الحقوق مـايجعلها شريعة للرجل إن كان أخاً أو زوجاً ، فهي تقاسم أخاها الميراث ، وتطالبه بالنفقة إن إحتاجت إليها ، وهي إن تزوجت كانت سكنـاً لبعلها معينة له في حياتـه ومربية لأولاده ومحافظـة على سره ، ومالـه ، وجعل لها عند الـزواج من الحقوق مثل مـا عليها من الواجبات .

●●●

ويصحبنـا المؤلف إلى رحلـة روحيـة مقـدسـة حيث مسقط رأس الرسول الأعظم ومهـد رسالته الخالدة ويذكرنـا بشهر رمضان شهر الهدى والتربية والفرقان . . . فلقد شاءت إرادة الله وحكمته أن يبدأ نزول القرآن في شهر رمضان المبـارك ليخرج العالم به مما كـان يتخبط فيه من ضلال ،

ويشفى بـه من ظلـم وليكـون فـارقـاً بين الحق ، والبـاطل في العقيـدة والأخلاق ، ولـولا هذا ما اتصلت السماء بالأرض بـرسالة جديـدة للعالم كله ، وهي رسـالة الإسلام خـاتم الأديان والـرسالات الإلهية وأيضـاً كان شهـر رمضان إيـذاناً بعهـد جديـد للإنسـانية كلهـا ، وفارقـاً بين الحق والبـاطل وكـان هــدى ورحمة للعــالمين من جميع الأجنـاس والألــوان والشعـوب . . . فالجميع إخـوة يتعاونـون في السراء والضراء ، ويساعـد قـويهم ضعيفهم ، ولــو لم يجمع بينهم الـدين ، لأنهم جميعــاً أخـوة في الإنسانيـة ، وفيه الصـوم الذي يعـد نفس الصائم لتقـوى الله تعالى بترك شهواته الطبيعية المباحة إمتثالاً لأمر خالقه فيكون هذا وسيلة ناجحة لترك إرضاء الشهوات المحـرمة ، والصبر عنها . ويكون اجتنـابها والبعد عنها حينئذ أيسر عليه ، وفي هذا تعويد للإنسان على الكفاح وتقوية لعزيمته على الجهاد في الخير .

وأخيراً فـرمضان شهـر تفيض فيه رحمة الله وبـركاتـه ، ويشتد فيـه التواصل بين المؤمنين ، وتعمر فيه المساجد والدور بالصلاة وتلاوة القرآن . ويستجيب فيه الله سبحانه الدعوات فهو يقول :

«إذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان» .

ومن صوم رمضــان وفضائلـه إلى حج بيت الله الحرام ، فالحج ركن من أركان الإسلام ، وشعيرة يتطلب القيـام بها البذل من المال والنفس ، وعبادة لا يتم للقادر على دينه إلا الإضطلاع بها حتى يروي عن رسول الله أنه قـال : **«من مات ولم يحج فليمت إن شاء يهودياً ، وإن شـاء نصرانياً»** هذا وقد حـج خاتم الأنبياء والمرسلين حجتين وهو بمكة قبـل هجرته إلى المدينة ولم يحج بعـد الهجرة إلا حجة الـوداع في السنة العـاشرة ، أي بعد فتح مكـة بسنتين . . . وكانت هـذه الحجة حـدثاً خطيراً ذا أثـر كبير في

حياة الإسلام والمسلمين .

ويعـــود بنـا المؤلف إلى الأسرة الخليـــة الأولى للمجتمع أو المجتمع الصغير الذي يتكـون منه المجتمع الكبير أي الأمـة ، فقد عنـي الإسلام عنـاية شـديدة بـالأسرة وتكوينهـا ونشأتها ، وبيان مـا لكل أفرادهـا من حقوق ينبغي أن يطالب بها وما عليه من واجبات يجب أن يؤديها ، ومتى قام كل فرد أو جماعة بمال . وما عليه كـانت الحياة الطيبة السعيدة للأسرة وللمجتمع معاً ولتكوين الأسرة ، وهذا هو اختيار كل من الزوجين الآخر ، وبمقـدار ما يـوجه لهذا الاختيـار من عنايـة ، تكون سعـادة الأسرة ، واستقـرار حياتها أو يكـون شقاؤهـا واضطرابها ولقـد هدانـا الرسـول إلى الطريق الأقوم في اختيار الزوجة إذ يقول :

«كانت رسالة الإسلام بيـان العقيدة الحقة بعد أن اختلفت في ذلك اليهودية والنصرانية إختلافاً كبيراً فـرق العالم إلى فرق كثيرة متعادية وكانت رسالته أيضاً وضع النظم والقوانين الصالحة لحياة الفرد والجماعة والأمة ، إذ كان حظ ماسبقـه من الأديان السماوية ضئيلاً في هـذه الناحية ، ومن هـذه النظم والقوانين مـانعرفـه اليوم بـاسم الفقـه الإسلامي فإن الـدين الإسـلامي ليس عقيـدة فقط ، بل هـو عقيدة وشريعـة وخلق ، ونظـام صالح للحيـاة في مختلف الأزمنة والأمكنة ، وفي هذا الفقـه جماع مانعرف اليوم من أقسـام القانون الـوضعي الحديث وفروعـه المدني ، والتجاري ، والجنائي والدستـوري ، والإداري إلى آخر فروع القانـون كما أن فيه أسس النظم الإقتصـادية والماليـة التي بها صلاح الفـرد والأمة بـه - أي الفقه - صلحت أمة عظيمة سـادت البشرية قروناً طويلة ولا تـزال صالحة لقيادة العالم وتـوجيهه حين ترجع تمامـاً إلى دينها وشريعتها الصـالحة لكل زمان ومكان إلى تقاليدها الطيبة .

ومرت على العالم الإسلامي فترة كان لا يعنى فيها إلا بفقه أجنبي دخيل بعد أن ولى ظهره للفقه الإسلامي الأصيل . . . يقول الدكتور/ عبدالرازق السنهوري :

علينا أولاً أن نمصّر الفقه فنجعله فقهاً مصرياً نرى فيه طابع قوميتنا ونحس أثر عقيدتنا ففقهنا اليوم لايزال هو أيضاً يحتله الأجنبي : والإحتلال هنا فرنسي ، وهو احتلال آخر لايزال الفقه المصري يتلمس في الفقه الفرنسي الهادي المرشد لايكاد يتزحزح عن أفقه أو ينحرف عن مساره فهو ظله اللاصق ، وتابعه الأمين .

كلنا اليوم قد خطونا خطوة كبيرة في سبيل الغرض الذي نقصده ، وهو الإفادة من شريعة الله ورسوله ، حتى ينتهي بها الأمر إلى أن تكون المصدر الرسمي الأول للقوانين التي تحكم بها ، وهذه النقلة من حال تجاهل هذا الفقه إلى العناية به لها أسبابها ، كما أن لها مظاهرها ، فقد أحست الأمة إحساساً شديداً لشدة وطأة الإحتلال الأجنبي العسكري والفكري ، فهبت جميعها تطلب الإستقلال في كل شيء ، وطالبت بكل وسيلة ، وعملت بكل ما تملك من قوى ، ونبع في مصر - قلب العروبة - من رجال القانون من رأى أنه قد آن للقانون الذي نحكم به أن يكون مصرياً عربياً يتفق مع قوميتنا وتقاليدنا ، وعملوا للوصول إلى ذلك بالطرق التي رأوها صالحة ناجعة في رأيهم ، ولا عجب في أن ينادي المشرعون المسلمون بهذا التحول . ففي الإسلام بتشريعاته ونظمه مايغنينا عن الأخذ عن الغرب دائماً في غير ضرورة . . . وفي ذلك يقول أحد المتزعمين لهذه الدعوة ، إن لكل أمة قانوناً يتحاكم إليه أبناؤها ، وهذا القانون يجب أن يكون مستمداً في البلاد الإسلامية من أحكام الشريعة الإسلامية ، مأخوذاً عن القرآن الكريم ومتفقاً مع أصول الفقه الإسلامي»

ويحرص المؤلف وهو في هذا الصدد على أن يعرف الوطن في الإسلام فيقول :

«ليس الوطن في نظر الإسلام هو قطعة الأرض المحدودة التي نعيش فيها ، ونحيا بين أرضها وسمائها والتي يسكنها بضعة ملايين من الناس ، ويحكمها حاكم يتخذ لنفسه ما يشاء من ألقاب ، بل هو البلاد المترامية الأطراف التي تجمع بين قلوب أبنائها الروابط التي لابد منها لأمة من الأمم . . من دين ، ولغة ، وثقافة عامة ، وتقاليد متقاربة وتاريخ مشترك بما يزخر به من تضحيات وكفاح في سبيل العزة والمجد ، ومن آلام وآمال وأهداف وغايات .

وذلك لأن الإسلام هو دين التوحيد بلا ريب . . وهو مع هذا دين الوحدة أيضاً . . . ونعني بهذه الوحدة ، في الإله المعبود بحق ، والوحدة السياسية التي لا تعرف طبقات متمايزة في الحقوق والواجبات .

فهذا هو القرآن الكريم يقول :

﴿إن هذه أمتكم أمة واحدة﴾ ويقول : ﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله اتقاكم﴾ .

ويقول رسولنا الكريم صلوات الله وسلامه عليه في حديث له :

«كلكم لآدم وآدم من تراب لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى»

إذاً فمن الواجب أن يتقرب بعضنا مع بعض وتكون لنا سياسة واحدة ، أو متفقة في غاياتها ورسائلها ونعود كما كنا أبناء وطن واحد هو الوطن العربي الإسلامي الأكبر وأمة واحدة متماسكة يقوى بعضها بعضاً ، ويشد بعضها إزر بعض في سبيل مصلحة العرب العامة العليا .

وصـدق رسول الله الـذي يقـول : **«المؤمن للمـؤمن كالبنيـان يشد بعضه بعضاً»** .

ويحرص المؤلف فيما يحرص على أن يقـدم نماذج من الصور البشريـة مستوحياً إياها من القرآن الكـريم . . . الكتاب الخالد المعجز بمعانيه ، وأساليبه وألفاظه . . .

من هذه النماذج :

●● المؤمن في القرآن :

إن المؤمن هو الذي يصدق الرسول في كل ما يأتي به من أمور الغيب ، والدار الآخرة كما يصدقه في الواقع المشـاهد وهو الذي يدفعه إيمانه إلى القيام بما عليه من حقـوق الله وحقوق في ماله ، وهـذا المؤمن الذي يؤمن بالله وكتابه ورسـوله ، ويهتدي بهديه هو الذي يكـون من نصيبه النجاح والفلاح في الدنيا والآخرة .

وفي هـذا وذاك يصف الله تعـالى المؤمنين بقـولـه : **﴿الذين يؤمنون بالغيب ، ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ، والذين يؤمنون بما أنزل إليك ، وما أنـزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنـون ، أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون﴾** .

ويقول الله تعالى مبيناً بعض صفات المؤمنين التي لها خطرها وقدرها في الحياة :

﴿إنما المؤمنون الـذين آمنوا بالله ورسولـه ، ثم لم يرتابوا ، وجـاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هـم الصادقون﴾ .

●● نِعْم أجر العاملين :

الإسـلام عقيـدة يـؤمـن بها العقل ويطمئن بها القلب وينشرح لها

الصدر ، وعمـل ينبعث عن العقيدة العقيـدة ، ويكون فيـه الخير للفرد والمجتمع ، وذلك مع العمل بشرائع الإسلام وأحكامه وتعـاليمه ، فلأنه لا ينفع الإيمان بعقيـدة ما ، دون عمل بما يـوجبـه بل إن هذا ليس إيمانـاً حقاً ، ولا ينفع العمل دون إيمان صحيح بالـدين الحق ، ومن ذلك قول الحق تبـارك وتعـالى : ﴿من عمل صـالحاً من ذكـر أو أنثى وهـو مـؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون﴾ .

●● النفاق والمنافقون :

يقول سبحانه وتعالى : ﴿ومن الناس من يقول آمنا بالله واليوم الآخر ، وما هم بمـؤمنين يخادعون الله والذين آمنوا ، ومـا يخدعون إلا أنفسهم ومايشعرون ، في قلـوبهم مرض فزادهم الله مرضـاً ، ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون﴾ .

وافتتح سبحانه وتعالى سورة البقرة بإبراز ثلاث صور تشمل صنوف الناس جميعاً : المؤمن الصريح في إيمانه فسره كعلانيته – والكافر الصريح في كفره ، فظاهـره كباطنه – والمنافق الذي يظن أنـه يخدع الناس ، يقول بلسانه ما لا يعتقده بقلبه .

وأيضاً جـاء في الحديث فيما رواه ابن ماجة في سننه ، إن الـرسول – ﷺ – قال : الإيمان معـرفة بالقلب ، وقـول باللسان وعمل بـالأركان ، فإذا كان المرء لا يجمع هذا كله لم يكن مؤمناً حقاً ، بل يكون زائف الإيمان ، أو يكون ممن لا إيمان لهم في الحق من القول ، ويكون مخادعاً للناس بما يقول .

●● محاولة صرف الناس عن هدى القرآن :

روي الإمام مسلم في صحيحـه أن الرسـول – صلوات الله وسـلامه

عليه – قال : «خيركم من تعلم القرآن وعلمه» .

والمسلم الصادق في إيمانه بالله وكتـابه العظيم ، يحرص الحرص كله على قراءة القرآن وعلمه» .

والمسلم الصادق في إيمانه بالله وكتـابه العظيم ، يحرص الحرص كله على قراءة القرآن متى استطـاع وعلى الاستماع إليه إذا تلا غيره شيء منه ، وعلى تدبره والتفكير فيه ، وعلى الإفادة مما جاء به من تشريعات وآداب ، ومن قصص الأولين التي فيها ذكرى وعظات بالغة لقوم يعلمون .

ومع ذلك فهناك صنف من الناس ، أعمى الله عقولهم وقلوبهم عما جاء بـه القرآن من حق ونـور وهدى للنـاس كافة فضـاقوا بـه ذرعاً حين عجزوا عن معارضته فأخذوا يفتنـون في صرف غيرهم عنه ، وقال قائلهم كما حكـــاه الله عنهم . . ﴿لا تسمعـوا لهذا القـرآن والغـوا فيـه لعلكم تغلبون﴾ .

●● سوء فهم للإكرام والإهانة :

إن الله سبحانه لا يغدق الرزق ، أو يضيق فيه إلا ليتبين لنا الشاكر والكفور في حـال السعة ، والصـابر والجاذع في حـال الضيق ولو كـانت سعة الرزق دليلاً على إكرام الله لمن وسع عليه ، وإلى خيرات هذه الحياة له ، ولـو كان الضيـق والشدة أمـارة على هـوان من قـدر الله عليه رزقـه ، وعلامة على سخطـه عليه – نقول لو كان الأمـر هكذا – لما رأينا كثيراً من المؤمنين الصادقين والخيرين الفضلاء يقاسون الشـدة من سوء ما هـم فيه من حاجة وجهد وخشونة في الحياة .

●● بين اليسر والعسر :

إن المؤمن الصـادق في إيمانـه ، يعرف يقينـاً أن المؤمن الصـادق في

إيمانه ، يعـرف يقيناً أن الله جلت حكمته لا يفعل شيئاً عبثـاً ، وان فعله دائماً لحكمة ومصلحة قـد تختفي علينا ، كما يعرف أنه تعـالى مصدر كل مايصيبنا من خير أو شر فكل شيء هو بقضائه وقدره سبحانه هو العليم الحكيم وهو المستحق للعبادة والدعاء في كل حال .

وإذا كان المؤمن الصادق الإيمان يوقن بهذا وذاك – فإن أمره في هذه الحياة يدور بين الشكر والصبر ، شكر على النعمة ، وصبر على المكروه ، ورضا بالله في كل حال ، وتسليم بما يأتي به ، ومن ثم قيل بحق : الإيمان صبر وشكر وفي القرآن الكريم :

﴿وسيجزي الشاكرين﴾ وفيه أيضاً : **﴿إنما يوفى الصابرين أجرهم بغير حساب﴾** .

ولكن كثيراً من الناس ليسوا على هذا النحـو ، فإن الواحد منهم لا يتذكر الله إلا عنـد الشدة ، ولا يدعوه إلا حين تنزل به مصيبـة ، أو يناله ضر في نفسه أو ولده أو ماله .

أمـا إذا رأى أنـه في نعمة ، فـإنه ينسى مـن كان يتضرع إليـه حـال البؤس والضيق ، فلا يتوجه إليه بعبادة أو دعاء ، وربما إعتقد أنه أهل لما ينعم به مستحق له فليس ما يدعـوه للشكر عليه . والقرآن الكريم يرسم صورة هؤلاء المفتونين الجاحدين ، وذلك إذ يقول الله تعالى :

﴿وإذا مس الإنسان الضر ، دعا ربه منيباً إليـه ، ثم إذا خوله نعمة منه نسي ما كان يدعو إليه من قبل ، وجعل لله أنداداً ليضل عن سبيله ، قل تمتع بكفرك قليلاً ، إنك من أصحاب النار﴾ .

●●●

ومع نهاية فصول الكتاب يقدم لنا المؤلف فاصلاً يتضمن جوانب

من التراث الإسلامي فإن الدعامات التي تتقوم عليها كل أمة من الأمم أن يكون لأبنائنا عقيدة وطنية قومية ، وهذه العقيدة تقوم على الإيمان ، إيماناً لا ريب فيه بعلو جنسهم وحضارتهم وتقاليدهم ، وعلى الإيمان كذلك بقيمة تراثهم الفكري وبوجوب الإفادة منه ، فإن البناء للحاضر وللمستقبل لا يمكن أن يقوم ويقوى إلا على أسس قوية ذاهبة في الأعماق ، ومن أجل هذا وذاك وجب أن نجلو بعض جوانب تراثنا الإسلامي والحضارة القوية المجيدة التي قامت عليه .

وحين نتعرف حقاً إلى ذلك التراث المجيد ، وحين ندرك قيمته ونفيد منه ، نعلم يقيناً مقدار ما فيه من خير ما كان ينبغي أن نعرض عنه زمناً طويلاً ، ونعلم أيضاً أن أمة تملك هذه القوى المذخورة يجب أن تزاحم الأمم الأخرى في المحافل الدولية ، والكواكب العالمية .

وتناول المؤلف بعض نواحي هذا التراث ممثلاً لكل ناحية بكتاب من مراجعه الأصلية مع تحليله ، وبيان مقاصده ، وأهدافه ، والطريقة أو المنهج الذي اتبعه المؤلف في تأليفه كسيرة إبن هشام أول مرجع لسيرة الرسول - ﷺ - بعد القرآن الكريم كما أنه أثر وصل إلينا كاملاً في هذه الناحية ، وذلك بوساطة رجل واحد هو زياد البكائي ، ومن ثم كان حرياً بتوفر الناس على دراسته واحلاله المكانة اللائقة به بين عيون التراث الإسلامي التاريخي .

ثم كتاب طبقات ابن سعد ثمانية أجزاء ، خصص الأول والثاني منها بسيرة الرسول - ﷺ - ثم ذكر في الجزء الثالث بقسميه من شهد معركة بدر من المهاجرين والأنصار .

وجعل القسم الأول من الجزء الرابع خاصاً بالصحابة الذين لم يشهدوا بدراً من المهاجرين والأنصار ولهم اسلام قديم .

وجعل القسم الثاني لمن اسلموا قبل فتح مكة .

وخصص الجزء الخامس لأهل المدينة من التابعين ومن كان منهم ومن الأصحاب بمكة والطائف واليمن واليمامة والبحرين .

وفي السادس تناول من نزل الكوفة من الصحابة ، ومن كان بها بعدهم من التابعين وغيرهم من أهل الفقه والعلم .

وفي السابع تناول البصريين والبغداديين والشاميين والمصريين وغيرهم ، وجعلهم طبقات من حيث السن ، ومن حيث شيوخهم الذين رووا عنهم .

أما الجزء الثامن وهو الأخير فقد خصصه للنساء من المهاجرات والأنصاريات ، فهو يبدأ بمن بايعن الرسول ، ثم من كن من قريش ، وأخيراً من كن من العرب وغيرهم .

ومن بين الكتب التي تعرض لها المؤلف كتاب موطأ مالك وهو كتاب جليل في الحديث والفقه معاً ، وهو أول كتاب وصل إلينا من نوعه وفي طريقته واسلوبه ، جمع فيه الإمام مالك ما قوي عنده من حديث أهل الحجاز ، وأضاف إليه أقوال الصحابة وفتاوي التابعين ، ثم رتبه بعد ذلك على أبواب الفقه المعروفة في العبادات والمعاملات ، وختمه بفصول شتى في الفقه أيضاً والأخلاق والدين عامة .

ويحدثنا المؤلف أيضاً عن كتاب يعتز به المسلمون إعتزازاً كبيراً لأنه أول كتاب في علم لم يوجد له إلى اليوم نظير في غير الإسلام وهو كتاب «الرسالة للإمام الشافعي في علم أصول الفقه وأدلته والطريق إلى استنباط الأحكام الشرعية منها .

ويختم المؤلف كتابه بتقديم توجيهات القرآن الكريم والسنة النبوية

الشريفـة في التعـاون على الخير ، والأمـر المعـروف والنهي عن المنكـر ، والتراحم والتكافل الإجتماعي والإصـلاح بين الناس والغنـائم والإقتصاد في المعيشة ثم في الحث على العمل والتعفف عن السؤال إلى غير ذلك من القيم والمبادىء الإنسانية .

وبعد :

إن كان لنـا كلمة بعـد عرضنـا لهذا الكتاب الإسـلامي المفيد فـإننا نقول : إن الإسلام دين خالد تنـاول كل شؤون الحياة ، وأتي بخير الحلول لكل مشكلة من مشاكلها بلا استثناء بالنسبة للفرد ، والأسرة والمجتمع ، والأمة ، والدولة والإنسانية كلهـا بلا فارق بين الأجناس والشعوب . . . جاء بـالعقيدة الصحيحة وبـالشريعة العادلـة التي يكون الناس أمـامها سـواء ، وبالأخـلاق الفاضلـة التي يقوم مجتمع إلا بها ، وبـالنظم التي لابد منها لحياة الفرد والمجتمع والأمة جميعاً .

وهكـذا ينتهي عرضنـا لكتاب : «الإسـلام والحياة» ذلك الكتـاب الرشيق الذي يحمل بين جنباته حصيلة عـالم فاضل أفنى جانباً من عمره في الخوض في كل ما يعني للقارىء المسلم من أمور دينه ودنياه .

●●●



الإسـلام دين الفطرة والمسـاواة والعدل - جـاءت شريعته سمحـة ينهل منها كـل من أراد أن يضع ضوءاً في طريـق البشرية أو أراد أن يحكم العقل كيما يصل إلى كنه هـذه الحياة وموجوداتها . . . بل المعـاني السامية التي جاء بها الإسلام فأصبحت دستوراً قوياً لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد .

مع فضيلـة الشيـخ محمـد محمـد المدني نعيش كتـابـه : «وسطيـة الإسلام» حيث بـدأه بما يدور في خلده ككـاتب مسلم عن معنى آية من آيات قرآننا الكريم :

﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس﴾ درستها دراسة واعية هدفها معنى هذه الوسطيـة أي عدالة ما جاء به الإسلام من أحكـام ومبـادىء ومثل فإيمان المسلمين في أن أحكـامهم هي الأحكـام الصـالحة للحيـاة أو بأن عقـائدهم ومثلهـم هي ميـزان التعـديل ومنهج الحكم ، وعنـاصر الشهادة الصـادقـة المطابقـة للمصلحـة ، هو أيضـاً واجب عيني على كل فرد في الأمة الإسلامية بحكم القرآن .

ولهذا بين المؤلف للنـاس أن أحكام الإسـلام ومنـاهجه ومثلـه هي مقاييس العـدل وموازين الحق ومعـايير الفضيلة ، وأنها في الـوقت نفسه سبل السعادة والأمن والرضا .

ولنقف عند هذا الحد لنجد المؤلف وقد مهد لنا الطريق عندما شرح لنا أسلوب البحث بقولة :

«إن القضـايا التي تبحث في ظـلال التحمس تتعرض عـادة لشك

القارىء ، وربما لإساءة الظن بالباحث» .

لذلك سيجد القراء أننا تحقيقاً لهذا الإنصاف المنشود أفصحنا عما يراود الأفكار من شبه ، وما يلابس كثيراً من القضايا من شكوك ، فقررناها واضحة كما نعرفها في أذهان أصحابها . ثم نظرنا فيها فإن ذلك مصارحة ومكاشفة وهما أجدر أن يوصلا إلى التفاهم الصحيح المستقر لا إلى مجرد التقبل الظاهري والإذعان الجدلي .

ولعلنا نتساءل عن معنى الوسط . . . فهو لغة اسم لما بين طرفي الشيء وان أوساط الشيء أفضله وخياره .

ومن الحديث . . «خيار الأمور أوسطها» .

وقد مدح الله تعالى التوسط في مواضع كثيرة من كتابه مثل قوله :

«ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط»

لذا كان وصف الله سبحانه وتعالى لأمة محمد - ﷺ - بأنها أمة وسط . . تلك كانت لفتة من المؤلف تبين لنا قصد السبيل من دراسته لمعنى الوسطية في الإسلام .

مظاهر الوسطية :

اقتضت حكمة الله تعالى أن يخلق الإنسان مركباً من روح وجسم حتى يكون صالحاً للماديات والمعنويات معاً ، ولم يجعله كالملائكة روحانياً صرفاً لأنه عمارة هذا الكوكب الذي يعيش فيه تقتضي هذا اللون من الخلق المزدوج الطبيعة .

لذلك خلق الإنسان - بهذه الحكمة - على هذا النحو الجامع بين المادية والروحية فكان لابد له بالإعتراف بحقوق فطرته وميوله وعواطفه

. . . فالفطـرة تأبى ماينافيها ، وهي البـاقية في الإنسان الراسخـة فيه ، وكل ما سواها فهو طارىء عليها متأثر بها لا يستطيع أن يزيلها .

ولقد قـامت الشريعة الإسـلامية على رعايـة هذه الفطـرة في كل ما جاءت من أحكـام سواء في جانب العقيدة أو في جـانب المناهج والشرع العملية والخلقية ورسوم العبادات .

وهـذا الـروح الذي يسيطـر على جميع الأحكـام هي الـوسطيـة أي الإعتـدال والتوسيـط بين الأطراف وهـو الـذي يـلائم الطبيعة المزدوجـة لـلإنسان ولـذلك وصف الإسلام بأنـه دين الفطرة تعبيراً عن هـذا المعنى وأخذاً من قوله تعالى :

﴿فأقم وجهك للدين حنيفـاً فطرة الله التي فطر النـاس عليها ، لا تبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ .

ومن تأمل في أي حكم من أحكام الشريعة استطاع أن يجد فيه هذا الروح وأن يرده إلى هذا الأصل . ولقد ضرب مؤلفنا أمثلة تدل على بساطة العقيدة ، ويسر التكليف منها : أن العقيدة الإسلامية في الله جل جلاله قائمة على وصفه تعالى بكل جميل ، وتنزيهه عن كل قبيح ، وقد أمرنا بأن تفكر في آثار الله ، ولم نـؤمر - بل نهينا - أن نفكـر في ذاته - لأن آثار الله في الخلق والإيجاد والتصرف واضحـة يمكن أن نـراهـا بقـولنـا كما نـراهـا بعيوننا .

يقـول الله عـز وجل في حض العبـاد على التفكير في خلقـه وآثـاره وماله من تصريف وتدبير .

﴿إن في خلق السمـوات والأرض واختـلاف الليـل والنهـار لآيـات لأولى الألباب﴾

ومن ذلك أيضـاً التوسط بين الـزاعمين بأن الإنسان مجبـور ظاهـراً

وباطناً . والزاعمين بأنه خالق لكل فعل من أفعال نفسه دون دخل الله .

وفي القرآن الكريم آيات يستدل بها هؤلاء ، وآيات يستدل بها هؤلاء والنقـــاش والجدال بينهما طــويـل ، ولكن المتأمل المنصـف الخالي من التعصب يستطيع أن يعلم الحق ، وأن يراه واضحاً في كتاب الله .

وكما يقال هذا في العقائد الإسلامية يقال في العبادات التي كلفنا الله إياها ، والمعاملات التي رسم لنا طريق السلوك فيها .

فالصلاة انقطاع عن المادة واتصال بالروح الأعلى ، ولكن في أوقات مناسبة محصـورة بحيث لا ينخلع الإنسان من حياته وأعمالـه ونشاطه ، ولا ينخرط فيها انخـراطاً كلياً فتظلم نفسه ويتبلـد حسه ، والصوم ليس حرماناً كاملاً بالليل والنهار ، أو قصراً على بعض المباحات دون بعض ، وإنما هو حرمان وقتي لساعات محدودة لكل بعـدها أن تتناول كل ماتريد من المبـاح ، وان تلابس مـا أحل الله فيجتمع لك من هـذا وذلك تربيـة الروح وتلبية الجسم ، وقل هذا في العبادات الأخرى ، وهناك آيات كثيرة تدل دلالة واضحة على معنى الوسطية كقوله تعالى :

«قل من حـرم زينة الله التي أخـرج لعباده والطيبات من الـرزق قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصـة يوم القيامة كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون» .

فهاتان الأيتان الكريمتان جـاءتا على مبدأ الوسطية فهما تقرران حق الإنسـان في الأكل والشرب واللبـاس والزينـة والطيبـات من الـرزق على حسب النامـوس الذي يستقيم عليـه شأنه فرداً وجماعـة والذي يـؤدي به حظ الجسم والروح معـاً ، وهما في الوقت نفســه توحيان ببعض القـواعد والأصـول التي تؤدي إلى تيسير الحيـاة على الناس ، وإلى تـرقية المستـوى البشري في الجانب الروحي . هـذا هو منهج الإسـلام في اللباس والـزينة

والطعام والشراب والطيبات من الرزق عامة لا تحريم لما أخرج الله لعباده ولا إسراف ، ولا التماس لغير الطيبات ولا تحرج من تطلب المتاع الحسن بوجوهه المشروعة . ولا بأس بالتنافس في سبيل التقدم والرقي تنافساً شريفاً من شأنه أن يرفع مستوى البشرى ، ويحقق إلى جانب ذلك سموهم الروحي ، وكمالهم الخلقي .

كذلك من الأصول المقررة في الشريعة الإسلامية تلك القاعدة التي تضمنها قول رسول الله - ﷺ - إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى » وهي قاعدة ذات أثر فعال في التوجيه والتربية وفيها نفع عظيم للمجتمع ، ويرتبط بها الحكم الشرعي في الجمهرة العظمى من أفعال المكلفين - وبيان ذلك يرجع إلى مايأتي :

القرآن الكريم والسنة المطهرة متضافران على تقرير هذه القاعدة وإثباتها أصلاً من أصول الشريعة المحكمة مما ورد في القرآن الكريم قوله : ﴿إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصاً له الدين ألا لله الدين الخالص﴾

﴿وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ، ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة﴾ .

فهذه الآيات وكثير غيرها واضحة في أن أساس الأعمال هو الإخلاص والنية الصالحة . وبهذا يتبين أن الشريعة الإسلامية قد قررت بهذا الأصل مبدأ يقوم على أساس من العدل والوسطية ويؤدي إلى تقويم خلقي للأفراد يترتب عليه صلاح كبير للمجتمع وتخفيف كثير من مآرب أصحاب الغايات الفاسدة المفسدة .

ولقد دأب مؤلفنا في دراسته الواعية على تبيان أهم ماتتميز به شريعتنا الغراء من وسطية ففي هدى الإسلام في الزواج والطلاق يقول :

«إن الزواج سنة من السنن الطبيعية التي لابد منها لبقاء النوع الإنساني ، ولذلك هيأ الله تعالى كلاً من الرجل على طبيعة تحبب إليهما الإجتماع والتقارب وامتن على الناس مُنبِّهاً إياهم إلى انه آية من آياته الدالة على قدرته وحكمته فقال سبحانه :

﴿ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها ، وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾

وهذا يدلنا على أن القرآن الكريم ينظر إلى سنة التزاوج والإرتباط بين الرجال والنساء كأمر عظيم له خطره الكوني ، وله قيمته الكبرى التي لا تقل في اعتبارها ، ولا في إيحائها بعظمة الله تعالى عن السموات والأرض واختلاف الليل والنهار ، واختلاف الألسنة والألوان ولذلك يعتبر الله تعالى هذه الرابطة العظمى رابطة مقدسة وتتفق كل الرسالات التي جاء بها أنبياء الله في ذلك فتقديسها ليس من الأمور التي تتغير بتغير الرسالات ، وليس مما ينسخ في شريعة من الشرائع ، ولا مما يدخل تحت تغير الزمن أو المكان أو يخضع لفلسفة نظرية أو واقعية تحاول إبطال أو تشكيك الناس فيه .

ولقد كان من الطبيعي أن تأتي التشريع الإسلامي الذي هو الفطرة والرحمة متمشياً مع روح المحافظة على هذه الرابطة . . .

وهذا الميثاق الغليظ ، وكان من ذلك أن الشرع أفادنا بأن فصبم هذا الميثاق الغليظ ليس مما يحبه الله ، وأنه كان إباحه تقديراً لما يمكن أن يقع بين الزوجين من نفور أو فساد في العلاقة لا يمكن معهما أن يقيما حدود الله فإنه أباح بهذا القدر فقط مع كثير من التحفظ ومع وضع كثير من العقبات في سبيل تمامه ، ومن ذلك أن الله تعالى جعل الطلاق المشروع على ثلاث مراحل وجعل للزوج أن يراجع زوجته في كل من المرحلتين

الأولى والثانية أما بعد الثالثة فقد حرم عليه امرأته إلا إذا تزوجت بغيره ثم طلقها .

في ذلك كله أبعاد للنهاية السيئة التي لايحبها الله وهي انفصام النكاح .

وهذا هو السر في أن الشريعة الإسلامية تعتبر عقد النكاح عقد دوام واستقرار وان فسخه خلاف الأصل وحكمه الخطر ، وأنه إنما يلجأ إليه حين يكون استمرار العلاقة الزوجية . مستحيلاً أو مفضياً إلى ما حرم الله ، وان الرحمة في مثل ذلك تقتضي أن يمنح كل من الزوجين بالتفريق فرصة جديدة غير هذه الحياة التي لم تعد صالحة .

والخلاصة أن الزواج سنة فطرية أقام الله عليها العالم وجعلها نعمة من نعمه العظمى على الناس وأن الدين يعطي هذه الرابطة ماتستحقه من قداسة ، وأن الله يحب لهذه الرابطة الدوام ، وأن تظل مصدر سعادة وتعاون على البر والتقوى للزوجين ، ومصدر نفع للناس وأنه تعالى يكره أن تنفصم عروة هذا الرباط فيضع الحواجز في سبيل هذا الفصم ولا يبيحه إلا بعد بذل جهود كثيرة للحيلولة دونه وبعد تمكين من الفرصة تلو الفرصة لمراجعة النفس ، وأنه بعد هذا يبيحه مراعاة لواقع الحياة في بعض ظروفها رحمة بالناس وتخليصاً للمجتمع من علاقة أصبحت فاسدة سيئة لا تجدي على أصحابها ، وتمكيناً لكل من الزوجين أن يجرب زوجية جديدة لعلها تكون أحسن حالاً وأنفع للمجتمع .

وما أن نصل إلى هذا الحد من الكتاب حتى نجد باباً مكملاً لما سبقه بعنوان : تحديد الوضع الإجتماعي لكل من الرجل والمرأة يقول المؤلف فيه :

إن الأنوثة مظهر طبيعي له مقتضياته ولوازمه ، ولا يمكن أن ينسخ ويزول من الواقع ولو إجتمعت كل العوامل الصناعية أو التكلفية على

نسخه وإزالته ، وليس في الإسلام مايوحي بأن الأنوثة يلزمها عدم الذكاء أو عدم المعرفة أو عدم الفطنة .

إن الأنوثة في ذاتها لا يمكن أن تكـون سبباً مباشراً لضعف عقلي أو عملي أو ديني .

وكم رأينا من النساء عالمات عاقلات حكيمات متدينات عابدات .

والقرآن الكـريم يفرض ذلك ويـدل على إمكانـه ، بل على وجوده والتـاريخ يحفظ من الـذكريـات الطيبـة لكثير من النسـاء مـا يعد فخـراً وشرفاً .

وليس في الإسـلام مـا يمنع النساء التفقـه في الـدين ، وفي مختلف شـؤون الحيـاة على شريطـة أن يحتفظ لهن وللمجتمـع بـوسـائل الصـون والعفاف ورعايـة الفضيلة ، بل إن الإسلام يحب ذلك ويأمر بـه ويؤكده ويحث عليه ولهذا كـان الإسلام منطقيـاً حين أراد أن يجعل أحـد الزوجين صاحب القوامة والرياسة تحقيقاً للنظام الذي يقضي بذلك في كل مجتمع فـاختار الـرجل وجعله قـوامـاً على المرأة ، ونظر في ذلك على أنـه أصلح الشريكين لهذا المركز فقـال : **﴿الرجال قـوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض ، وبما أنفقـوا من أمـوالهم﴾** فهـو تفضيل قـائم على مبدأين .

١ – الأصلح للعمل هو الأقوى عليه وهو الأولى به .

٢ – الأكبر مسؤوليـة هو الأولى بالسلطة ، ولـو أن الإسلام عكس الأمر فجعل المرأة هي القوامة على الرجل لكان منطقي مع مبدئه المقرر في اختيار الأصلح والأمثل ولا مع القواعد الطبيعية .

وحين جعل للرجل حق الولاية في الشـؤون العامة لم يجعل هذا الحق للمرأة إبتـداء وذلك لسبب واضح هو أن الـرجال أقدر على التفـرغ له ،

وأصبر على تبعاته ومقتضياته . وينبغي أن نشير هنا إلى أمرين :

أولهما : أن ذلك من شأن الولاية العامة أي الولاية التي لها طابع توجيهي وتنفيذي عام .

وثانيهما : أننا نقول أن الإسلام لم يجعل للمرأة هذا الحق ابتداءً . ومن هذا يتبين أن موقف الإسلام في هذه القضية وغيرها من القضايا التي تحدد الوضع الإجتماعي لكل من الرجل والمرأة لا تعنت فيه ، بل هو الموقف الذي لابد منه . ولايعد هذا انتقاصاً للمرأة أو تمييزاً للرجل ، وإنما هو وضع للأمور في نصابها ، وحكم عادل صادر عن درس لنفسية المرأة بحسب ماتزاوله من الأعمال ، وطبيعة مركزها في المجتمع ، ذلك المركز القائم على الضن بها أن تمتهن وتبتذل .

فلا ينبغي أن يؤخذ من التكريم معنى التنقيص ، ولا أن تجعل الصيانة والحفظ نزولاً بمركز المرأة ، وهما عين التكريم لها والتقديس لشأنها .

وفي نهاية جولتنا مع هذا الكتاب الشيق يستوقفنا بحث في أصول الأحكام قسم إلى :

(أ) القطعيات والظنيات في الشريعة .

(ب) أسلوب المشرع في العقائد والعبادات والمعاملات .

(ج) مجيء التكاليف في حدود الإستطاعة ، وهو المعبر عنه بنفي الحرج القطعيات والظنيات في الشريعة .

هناك نوعان من المسائل والأحكام يستطيع الناظر في علم الشريعة أن يفرق بينهما وأن يهتدي بهذا التفريق في بحثه ودراسته .

النوع الأول :

.الأحكام القطعية التي قام الدليل على أنها ثابتة لا تتغير بتغير الزمان أو المكان ولا يجوز الإختلاف فيها ، وهي تخضع في ثبوتها ونفيها لإجتهاد المجتهدين . ويمكننا أن نرجع هذا النوع إلى مايأتي :

١ - العقائد القاطعة التي يجب الإيمان بها لقيام الدليل اليقيني في ثبوته ودلالته عليها ، وعلى أنها الحد الفاصل بين المسلمين وغير المسلمين ، ومن جحد شيئاً منها فقد خرج من ربقة الإسلام .

وذلك كالتوحيد وارسال الرسل ، وانزال الكتب وختم النبوة بمحمد - ﷺ - والبعث بعد الموت والجزاء على الأعمال في الدار الآخرة . . الخ .

فليس لأحد أن يجتهد في ذلك ، وأمثاله ليس محلاً للإجتهاد إذ هو حقائق متعينة ثابتة باقية لا تتغير مهما تغير الزمان والمكان إلى يوم الدين ، وليس هناك احتمال ما لثبوت تغيرها أو بطلانها .

ثانياً:

الأحكام العملية التي جاءت بها الشريعة بطريقة واضحة حاسمة في جانب الإيجاب أو المنع أو التخيير ، وذلك مثل وجود الصلاة والزكاة وصوم رمضان ، وحج البيت من استطاع إليه سبيلاً .

ثالثاً:

القواعد الكلية التي أخذت من الشريعة بنص واضح ليس فيها ما يعارضه تقريراً أو تفريعاً أو إستنبطت بعد الإستقراء التام وعلم أن الشريعة تجعلها أساساً لأحكامها وذلك مثل **«لا ضرر ولا ضرار» «وما جعل عليكم في الدين من حرج» «الحدود تدرأ بالشبهات» ...**

«لا يعبد الله إلا بما شرع» . «المعـاملات طلق حتى يثبت المنع» – ونحو ذلك .

النوع الثاني :

أحكام أو نظرات لم تجيء على هذا النحو الواضح القاطع في وروده ومعنـاه ، ولكنها جـاءت أو جاء مـايدل عليهـا أو يشير إليها على نحـو صالح لأن تختلف فيـه الأفهام ، وتتعـدد وجهات النظر إمـا لأمر يتعلق بأصل الورود أو بالدلالة والإفادة .

وهذا النوع هـو الذي جعلته الشريعة مـوضع اجتهاد المجتهدين ، وجعلت منـه مجالات للنظـر والتفكير والموازنـة والترجيح . . والإستقـراء والتتبع وتقدير المصلحـة والعرف وتغير الحال . . إلى غير ذلك من وجوه النظر وأسباب الإختلاف .

ومن هذا القبيل في جـانب المعارف الكـلامية وفي جـانب الأحكام الفقهيـة وفي جـانب القـواعـد الأصـوليـة أو الفقهيـة التي تفـرغ عليهـا الأحكام .

والحكمــة في ورود هـــذين النـــوعين من الأحكـــام في الشريعـــة الإسلامية .

إن أمر الناس لا يصلح إذا جاءت الأحكام والمسائل كلها على نمط واحد .

فلا يصلح في أمور العقائد وأصول الدين أن يترك لعقولهم وافهامهم وظنونهم كما لا يصلح ذلك في حقائق العبادات وصـورها ورسومها ، ولا في أصول المعاملات التي تقوم عليها فكان من رحمة الله بالناس أن وقاهم شر التفرق فيهـا ورسم لهم دائرة محدودة واضحة المعالم يعـرف من دخلها ومن خرج عنها وسما بالحقائق الواقفة عن أن تكون محل خلاف أو تنازع .

أمـا الفروع التي لا يضر الإختـلاف فيهـا سواء أكـانت في الجوانب النظرية أم في الجوانب العملية فلم يكن يصلح أمـر الناس على توحيدها ، ولو أنها وحـدت لجمدت العقـول ولإصطدمت الشريعـة في كل زمان ومكـان بما يجد للناس من صـور المعامـلات ، وبما لابد منـه من مراعـاة المصالح ودرء المفاسد لذلك كان من رحمة الله بالناس وحكمه في التشريع لهم أن يفتح للعقول مجال النظر ولا يجعل من ذلك مددا لا ينضب معينه لما يجد من القضايا والصور ، ولما تساير به الشريعة المصالح .

ويتبين من هـذا أن الإسلام تـوسط في تشريعه من حيث رعـاية مـا يجب الإتفاق عليه ، ومايجوز الإختلاف والإجتهاد فيه . . فلم ينكر حق العقول في النظـر والبحث والتطـور وملاحظـة إختلاف العـرف والأمكنة والأزمنة ، وهي دواعي الإجتهاد ، كما لم ينكـر حق الجماعة في أن تأتلف على أمور تجمعها وتكون بها أمة مترابطة متفاهمة على أصولها .

أسلوب المشرع في العقائد والعبادات والمعاملات :

إن الشريعة الإسلاميـة لها ميادين ثلاثة في حياة النـاس تصول فيها وتجول ، ولا في كل ميدان من هـذه الميادين أسلـوب يختلف عن أسلوبها في غيره .

أما الميادين الثلاثة فهي :

١ - ميدان العقائد .

٢ - ميدان العبادات .

٣ - ميدان المعامـلات وأما أسلوبها في كل ميدان من هـذه الميادين فهو على الترتيب . .

١ - أسلوب المخبر الواصف .

٢ - أسلوب المنشيء المجدد .

٣ – أسلوب الناقد المهذب فالعقائد التي يفرض علينا الدين أن يؤمن بها ما هي الحقائق ثابتة في نفسها لها وجود واقعي ، وهي تفترق في هذا عن المباديء والأحكام التي هي من قبيل الإنشاء ، والتي تشرع للناس بعد أن لم تكن ، وتتغير أحياناً بتغير الزمان والمكان .

أما العبادات فهي تختلف عن العقائد في أنها إنشاءات أنشأها الله تعالى ، ورسم حدودها وهيأها على صور خاصة وطلب من عباده أن يعبدوه بها .

فالصلاة عبادة منشأة مؤلفة من أفعال خاصة وأقوال خاصة على ترتيب خاص .

والصيام إمساك عن الطعام والشراب وجميع الشهوات في زمان مخصوص .

والحج مناسك معينة لها رسومها وأوقاتها وأمكنتها وأركانها وشروطها. وأما موقف المشرع في ميدان المعاملات فإنه يختلف إختلافاً جوهرياً عن موقفه في كل من ميدان العقائد ، وميدان العبادات .

إن الشريعة ليست هي التي أنشأت للناس صور التبادل والتعاون والتعامل ، ولكنها جاءت فوجدت صوراً يتعامل الناس بها فكان موقف منها ، غير موقف الإنشاء والرسم وغير موقف الإخبار والوصف ، وذلك الموقف هو موقف الأفراد ، أو التعديل أو الإلغاء وهو الذي سميناه في أول هذا الباب أسلوب الناقد المهذب وهي لا تتدخل في هذا الميدان إلا بمقدار ما تحمي مثلها ومبادئها التي جاءت بها من العدل والتيسير والرحمة ودفع أسباب التشاحن والبغضاء ، وربط أفراد المجتمع برباط من المحبة والتعاون على البر والتقوى ، لا على الإثم والعدوان .

وثمرة هذا البحث أننا نستطيع أن نرسم على ضوئه منهجاً فقهياً في دراسة المعاملات الحديثة يقوم على دعامات ثلاث :

الدعامة الأولى :

أن من حق المجتمع الإسلامي أن يبتكر ما شاء من ألوان المعاملات وأن يجاري النشاط الإقتصادي العالمي بالمساهمة فيه حسب الطرق الحديثة دون تحرج .

الدعامة الثانية :

أن الأصول في المعاملات الإباحة فلا يجوز المسارعة إلى تحريم صورة من صور المعاملات حتى يتبين أن الله حرمها .

الدعامة الثالثة :

أن اشتمال المعاملة على ناحية من نواحي المنع والتحريم لا يكفي في القول بتحريمها .

وهذا يشرح لنا نظرة الإسلام المتوسطة بين هذه النواحي المختلفة من التشريعات فهي نظرة تقوم على إدراك الواقع وإعطائه ماينـاسبه من أساليب المعالجة والدرس ، وهي في الوقت نفسه تعطي العقائد الأصلية حقها في الثبات والإستقرار وأن تأتلف القلوب عليها ، وتعطي العبادات حقها في أن تكون مستمدة من المعبود لأنها رسوم شكره هو ، وتعظيمه هو ، فلا تستمد إلا منه ، كما لو تصورنا ملكاً يجعل لمقابلته وزيارته مواعيد وتقاليد لا يجوز الخروج عليها «ولله المثل الأعلى» .

وتعطي - أخيراً - المعاملات حقها في أن تتطور وتتجدد ، وملاحظة في أمرها مايصلح به الناس وتتيسر به الحياة وذلك مظهر عظيم من مظاهر الوسطية في الإسلام .

ومجيء التكاليف في حدود الإستطاعة :

وأما مجيء التكاليف في حدود الإستطاعة البشرية ، وهو ما يعبر عنه أهل الشرع «ينفي الحرج» فهو أصل من الأصول المقطوع بها ولا

خلاف عليه بين علماء الشريعة . . ويدل عليه في القرآن آيات كثيرة منها قوله تعالى :

﴿ يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ﴾ ﴿ يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفاً ﴾ ﴿ لا يكلف الله نفساً إلا وسعها ﴾ . وهناك أمثلة كثيرة تبين لنا مدى تيسير كثير من التكاليف على سبيل المثال :

إنه سبحانه وتعالى كلفنا بالوضوء والغسل من الجنابة ، وشرع التيمم عن فقد الماء أو عدم القدرة عليه .

﴿ أو لامستم النساء فلم تجدوا ماءً فتيمموا صعيداً طيباً ، فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه ، مايريد الله ليجعل عليكم من حرج ، ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون ﴾ .

وأمره الأزواج بأن يمتعوا زوجاتهم «على الموسع قدره وعلى المقتر قدره ، متاعاً بالمعروف» ورسم في شؤون الوالدات نهجاً لا ضرر فيه ولا ضرار «وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف لا تكلف نفس إلا وسعها ، لا تضار والدة بولدها ولا مولود له بولده» .

وأيضاً فقد حرم أشياء في حال السعة ، وأباحها في حال الضرورة :

﴿إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير ، وما أهل به لغير الله ، فمن اضطر غير باغٍ ولا عادٍ فلا إثم عليه ، إن الله غفور رحيم ﴾ .

﴿ ولا تحلقوا رءوسكم حتى يبلغ الهدي محله ، فمن كان منكم مريضاً أو به أذى من رأسه ففدية من صيام أو صدقة أو نسك ﴾ .

ومنها أنه يعطي الطبائع حقها ولا يلزم بما ينافيها فالطيبات مباحة وزينة الله التي أخرج لعباده مباحة ، والرهبانية ممنوعة .

واعتزال النساء في المحيض واجب ، والرفث إلى النساء ليلة الصيام حلال ، والرجال قوامون على النساء ، وللذكر مثل حظ الأنثيين ، ومواعدة المطلقة بالزواج أثناء العدة محرمة ، والجمع بين الأختين ممنوع وحرم على الرجال التزوج من الأم أو الأخت أو العمة أو الخالة ، ففي الزواج منهن إمتهان لهن ، وحرام على الرجال زواج الإماء إلا في حال الضرورة والرهن مشروع والمعسر منظر . . .

وهكذا ، من هذا يتبين أن التكاليف كما روعيت فيها طاقة الفرد في الواجبات العينية وأمثالها لوحظت فيها أيضاً طاقة المجتمع في الواجبات الكفائية وأمثالها .

●●●

أما بعد :

فهذه هي شريعتنا السمحة ، وهذه هي مظاهر عدالتها وتوسطها التي تجعلنا نفهم حق الفهم معنى قوله تعالى :

﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطاً . لتكونوا شهداء على الناس﴾ .

فليست هذه الوسطية إلا المنهج القويم العدل الذي يلاحظ الفطرة، ويعالج الطبيعة ، ويرد المجتمع إلى اليسر مع التماسك ، ويبعده عن الفساد والإنحلال مع الرحمة به والتخفيف عنه ، ، وأن هذا لهو الصراط المستقيم الذي علم الله عباده أن ينشدوه . وهكذا تنتهي جولتنا مع إحدى ذخائر الفكر الإسلامي الهادف إلى إسعاد البشرية جمعاء .

●●●

فهرست الكتاب

صدر من هذه السلسلة

العنوان	المؤلف
١ ــ تأملات في سورة الفاتحة	الدكتور حسن باجودة
٢ ــ الجهاد في الاسلام مراتبه ومطالبه	الأستاذ أحمد محمد جمال
٣ ــ الرسول ﷺ في كتابات المستشرقين	الأستاذ نذير حمدان
٤ ــ الاسلام الفاتح	الدكتور حسين مؤنس
٥ ــ وسائل مقاومة الغزو الفكري	الدكتور حسان محمد مرزوق
٦ ــ السيرة النبوية في القرآن	الدكتور عبد الصبور مرزوق
٧ ــ التخطيط للدعوة الاسلامية	الدكتور محمد علي جريشة
٨ ــ صناعة الكتابة وتطورها في العصور الاسلامية	الدكتور أحمد السيد دراج
٩ ــ التوعية الشاملة في الحج	الأستاذ عبد الله بوقس
١٠ــ الفقه الاسلامي آفاقه وتطوره	الدكتور عباس حسن محمد
١١ــ لمحات نفسية في القرآن الكريم	د. عبد الحميد محمد الهاشمي
١٢ــ السنة في مواجهة الأباطيل	الأستاذ محمد طاهر حكيم
١٣ــ مولود على الفطرة	الأستاذ حسين أحمد حسون
١٤ــ دور المسجد في الاسلام	الأستاذ محمد علي مختار
١٥ــ تاريخ القرآن الكريم	الدكتور محمد سالم محيسن
١٦ــ البيئة الادارية في الجاهلية وصدر الاسلام	الأستاذ محمد محمود فرغلي
١٧ــ حقوق المرأة في الاسلام	الدكتور محمد الصادق عفيفي
١٨ــ القرآن الكريم كتاب أُحكمت آياته [١]	الأستاذ أحمد محمد جمال
١٩ــ القراءات أحكامها ومصادرها	الدكتور شعبان محمد اسماعيل
٢٠ــ المعاملات في الشريعة الاسلامية	الدكتور عبد الستار السعيد
٢١ــ الزكاة فلسفتها وأحكامها	الدكتور علي محمد العماري
٢٢ــ حقيقة الانسان بين القرآن وتصور العلوم	الدكتور أبو اليزيد العجمي
٢٣ــ الأقليات المسلمة في آسيا وأستراليا	الأستاذ سيد عبد المجيد بكر
٢٤ــ الاستشراق والمستشرقون وجهة نظر	الدكتور عدنان محمد وزان
٢٥ــ الاسلام والحركات الهدامة	معالي عبد الحميد حمودة
٢٦ــ تربية النشء في ظل الاسلام	الدكتور محمد محمود عمارة
٢٧ــ مفهوم ومنهج الاقتصاد الاسلامي	الدكتور محمد شوقي الفنجري
٢٨ــ وحي الله	الدكتور حسن ضياء الدين عتر
٢٩ــ حقوق الانسان وواجباته في القرآن	حسن أحمد عبد الرحمن عابدين
٣٠ــ المنهج الاسلامي في تعليم العلوم الطبيعية	الأستاذ محمد عمر القصار
٣١ــ القرآن كتاب احكمت آياته [٢]	الأستاذ أحمد محمد جمال

العنوان	المؤلف
٣٢ـ الدعوة في الاسلام عقيدة ومنهج	الدكتور السيد رزق الطويل
٣٣ـ الاعلام في المجتمع الاسلامي	الأستاذ حامد عبد الواحد
٣٤ـ الالتزام الديني منهج وسط	عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني
٣٥ـ التربية النفسية في المنهج الاسلامي	الدكتور حسن الشرقاوي
٣٦ـ الاسلام والعلاقات الدولية	الدكتور محمد الصادق عفيفي
٣٧ـ العسكرية الاسلامية ونهضتنا الحضارية	اللواء الركن محمد جمال الدين محفوظ
٣٨ـ معاني الأخوة في الاسلام ومقاصدها	الدكتور محمود محمد بابللي
٣٩ـ النهج الحديث في مختصر علوم الحديث	الدكتور علي محمد نصر
٤٠ـ من التراث الاقتصادي للمسلمين	الدكتور محمد رفعت العوضي
٤١ـ المفاهيم الاقتصادية في الاسلام	د. عبد العليم عبد الرحمن خضر
٤٢ـ الأقليات المسلمة في أفريقيا	الأستاذ سيد عبد المجيد بكر
٤٣ـ الأقليات المسلمة في أوروبا	الأستاذ سيد عبد المجيد بكر
٤٤ـ الأقليات المسلمة في الأمريكتين	الأستاذ سيد عبد المجيد بكر
٤٥ـ الطريق إلى النصر	الأستاذ محمد عبد الله فودة
٤٦ـ الاسلام دعوة حق	الدكتور السيد رزق الطويل
٤٧ـ الاسلام والنظر في آيات الله الكونية	د. محمد عبد الله الشرقاوي
٤٨ـ دحض مفتريات	د. البدراوي عبد الوهاب زهران
٤٩ـ المجاهدون في فطاني	الأستاذ محمد ضياء شهاب
٥٠ـ معجزة خلق الانسان	الدكتور نبيه عبد الرحمن عثمان
٥١ـ مفهوم القيادة في إطار العقيدة الاسلامية	الدكتور سيد عبد الحميد مرسي
٥٢ـ ما يختلف فيه الاسلام عن الفكر الغربي والماركسي	الأستاذ انور الجندي
٥٣ـ الشورى سلوك والتزام	الدكتور محمود محمد بابللي
٥٤ـ الصبر في ضوء الكتاب والسنة	اسماء عمر فدعق
٥٥ـ مدخل إلى تحصين الأمة	الدكتور احمد محمد الخراط
٥٦ـ القرآن كتاب أحكمت آياته [٣]	الأستاذ أحمد محمد جمال
٥٧ـ كيف تكون خطيباً	الشيخ عبد الرحمن خلف
٥٨ـ الزواج بغير المسلمين	الشيخ حسن خالد
٥٩ـ نظرات في قصص القرآن	محمد قطب عبد العال
٦٠ـ اللسان العربي والاسلامي معاً في مواجهة التحديات	الدكتور السيد رزق الطويل
٦١ـ بين علم آدم والعلم الحديث	الأستاذ محمد شهاب الدين الندوي
٦٢ـ المجتمع الاسلامي وحقوق الانسان	الدكتور محمد الصادق عفيفي
٦٣ـ من التراث الاقتصادي للمسلمين [٢]	الدكتور رفعت العوضي
٦٤ـ تصحيح مفاهيم حول التوكل والجهاد	الأستاذ عبد الرحمن حسن حبنكة

الرقم	العنوان	المؤلف
٦٥	لماذا وكيف أسلمت [١]	الشهيد احمد سامي عبد الله
٦٦	أصلح الأديان عقيدة وشريعة	الأستاذ عبد الغفور عطار
٦٧	العدل والتسامح الاسلامي	الأستاذ أحمد المخزنجي
٦٨	القرآن كتاب أحكمت آياته [٤]	الأستاذ أحمد محمد جمال
٦٩	الحريات والحقوق الاسلامية	محمد رجاء حنفي عبد المتجلي
٧٠	الانسان الروح والعقل والنفس	الدكتور نبيه عبد الرحمن عثمان
٧١	كتاب موقف الجمهوريين من السنة النبوية	الدكتور شوقي بشير
٧٢	الاسلام وغزو الفضاء	الشيخ محمد سويد
٧٣	تأملات قرآنية	الدكتورة عصمة الدين كركر
٧٤	الماسونية سرطان الأمم	الأستاذ ابو إسلام احمد عبد الله
٧٥	المرأة بين الجاهلية والاسلام	الأستاذ سعد صادق محمد
٧٦	استخلاف آدم عليه السلام	الدكتور علي محمد نصر
٧٧	نظرات في قصص القرآن [٢]	محمد قطب عبد العال
٧٨	لماذ وكيف أسلمت [٢]	الشهيد احمد سامي عبد الله
٧٩	كيف نُدَرِّس القرآن لأبنائنا	الأستاذ سراج محمد وزان
٨٠	الدعوة والدعاة .. مسؤولية وتاريخ	الشيخ ابو الحسن الندوي
٨١	كيف بدأ الخلق	الأستاذ عيسى العرباوي
٨٢	خطوات على طريق الدعوة	الأستاذ أحمد محمد جمال
٨٣	المرأة المسلمة بين نظرتين	الأستاذ صالح محمد جمال
٨٤	المبادىء الاجتماعية في الاسلام	محمد رجاء حنفي عبد المتجلي
٨٥	التآمر الصهيوني الصليبي على الاسلام	د. ابراهيم حمدان علي
٨٦	الحقوق المتقابلة	د. عبد الله محمد سعيد
٨٧	من حديث القرآن على الانسان	د. علي محمد حسن العماري
٨٨	نور من القرآن في طريق الدعوة والدعاة	محمد الحسين أبو سم
٨٩	أسلوب جديد في حرب الاسلام	جمعان عايض الزهراني
٩٠	القضاء في الاسلام	سليمان محمد العيضي
٩١	دولة الباطل في فلسطين	الشيخ القاضي محمد سويد
٩٢	المنظور الاسلامي لمشكلة الغذاء وتحديد النسل	د. حلمي عبد المنعم جابر
٩٣	التهجير الصيني في تركستان الشرقية	رحمة الله رحمتي
٩٤	الفطرة وقيمة العمل في الاسلام	اسماعيل عبد الفتاح عبد الكافي
٩٥	أُوصيكم بالشباب خيراً	الأستاذ احمد محمد جمال
٩٦	المسلمون في دوائر النسيان	اسماء ابو بكر محمد
٩٧	من خصائص الاعلام الاسلامي	محمد خير رمضان يوسف

٩٨ ــ الحرية الاقتصادية في الاسلام ---------- د. محمود محمد بابللي
٩٩ ــ من جماليات التصوير في القرآن الكريم ------ الأستاذ محمد قطب عبد العال
١٠٠ــ مواقف من سيرة الرسول ------------- الأستاذ محمد الأمين
١٠١ــ اللسان العربي بين الانحسار والانتشار ----- الأستاذ محمد حسنين خلاف
١٠٢ــ اخطار حول الاسلام ---------------- الأستاذ هاشم عقيل عزوز
١٠٣ــ صلاة الجماعة ------------------- د. عبد الله محمد سعيد
١٠٤ــ المستشرقون والقرآن ---------------- د. اسماعيل سالم عبد العال
١٠٥ــ مستقبل الاسلام بعد سقوط الشيوعية ------ الأستاذ انور الجندي
١٠٦ــ الاقتصاد الاسلامي هو البديل ---------- د. شوقي احمد دنيا
١٠٧ــ توجيه وارشاد الشباب المسلم نحو قضاء وقت الفراغ - عبد المجيد أحمد منصور
١٠٨ــ المخدرات مضارها على الدين والدنيا ------- الدكتور ياسين الخطيب
١٠٩ــ في ظلال سيرة الرسول ﷺ ------------ الأستاذ احمد المخزنجي
١١٠ــ أهمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ----- محمود محمد كمال عبد المطلب
١١١ــ زينة المرأة بين الاباحة والتحريم ---------- د. حياة محمد علي عثمان خفاجي
١١٢ــ التربية الاسلامية كيف نرغبها لأبنائنا ------ د. سراج محمد عبد العزيز وزان
١١٣ــ النموذج العصري للجهاد الأفغاني -------- عبد رب الرسول سياف
١١٤ ــ المسلمون حديث ذو شجون ----------- الأستاذ أحمد محمد جمال
١١٥ ــ الترف وأثره في المجتمع من خلال القرآن الكريم ناصر عبد الله العمار
١١٦ ــ المسلمون في بورما .. التاريخ والتحديات ---- نور الاسلام بن جعفر علي آل فايز
١١٧ ــ آثار التبشير والاستشراق على الشباب المسلم د. جابر المتولي تميمة
١١٨ ــ اللباس في الاسلام ------------ أحمد بن محمد المهدي
١١٩ ــ أسس النظام المالي في الاسلام ---------- الأستاذ محمد أبو الليث
١٢٠ ــ المستشرقون والقرآن ــ ٢ ــ ---------- د. اسماعيل سالم عبد العال
١٢١ ــ الاسلام هو الحل --------------- القاضي الشيخ محمد سويد
١٢٢ ــ من حصاد الفكر الاسلامي ---------- د. محمد محي الدين سالم